الرّوابط اللّغوية في الخطاب الهجائي من رسائل الجاحظ (ت٢٥٥هـ)
دراسة نصّية

د. محمد بن عبد الله المزّاح
أستاذ اللغويات المشارك بقسم اللغة العربية – كلية الآداب
جامعة الملك خالد

الرّوابط اللّغوية في الخطاب الهجائي من رسائل الجاحظ (ت٢٥٥هـ): دراسة نصّية

د. محمد بن عبد الله المزّاح
قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك خالد
maalmzah@kku.edu.sa

تاريخ تقديم البحث: ٣/ ٢/ ١٤٤٧ هـ تاريخ قبول البحث: ٤/ ٤/ ١٤٤٧ هـ

ملخص الدراسة:

ينفتح البحث على عالم الجاحظ في خطابه الهجائي، متتبعًا خيوط الروابط اللغوية التي نسج بها نصَّه مزاوجًا بين الحجاج والبلاغة. فالروابط- على اختلاف مستوياتها - لم تكن عند الجاحظ مجرد أدوات تركيبية؛ بل غدتْ مفاتيح تحكم البناء، وتكشف عن وعي نصيّ مبكر.

وقد سار البحث في مسارٍ ثلاثي: سبقه تمهيدٌ يُبرز أهمية الروابط في الدرس اللساني، فمبحث أوّل به الإطار المفاهيمي والمنهجي، ومبحث ثانٍ تناول الروابط في خطاب الجاحظ الهجائي؛ ليُتوَّج بمبحث ثالث أبرزَ علاماتها الجمالية والبلاغية. وقد تبيّن أنَّ الخطاب الهجائي عند الجاحظ يُمثِّل مجالًا يزدحم بالروابط؛ مما يشي بحوارية جدلية عميقة، وثراء ثقافي فريد.

وقد انتهى البحث إلى أنَّ الروابط تُشكّل عصب النَّصِّ التي استعملها الجاحظُ سلاحًا حجاجيًّا يثبت به الفكرة، وأداةً بلاغيةً يصوغ بها المفارقة والسخرية، وأبرز البحثُ أنَّ مفهوم النص تطوّر من كلام مكتفٍ بذاته في التراث العربي، إلى وحدة دلالية كبرى في اللسانيات الحديثة، وأنَّ الجاحظ كان رائدًا في هذا الوعي بجسوره بين بلاغة النص وبنيته، في كل ذلك جعلت الإحصاء الرقمي مسانِدًا لما توصّلت إليه.

الكلمات المفتاحية: الروابط اللغوية - رسائل الجاحظ- الخطاب الهجائي- دراسة نصية.

Linguistic Links in the Satirical Discourse of Al-Jahiz's Letters (d. 255 AH): A Textual Study

Dr. Mohammad bin Abdullah Al-Mazzah.
Associate Professor of Linguistics, Department of Arabic Language, Faculty of Arts, King Khalid University

Abstract:

This study investigates Al-Jahiz's satirical discourse, focusing on the linguistic connections that shape his texts into coherent and dynamic structures. These connections—grammatical, lexical, referential, and pragmatic—function not only as syntactic devices but as central mechanisms that govern meaning and reveal an early textual awareness, making discourse an integrated entity alive with vitality.

The research is structured in three stages: an introduction emphasizing the significance of conjunctions in linguistic studies; a first section outlining the conceptual and methodological framework; and a second section analyzing conjunctions in Al-Jahiz's satire. The third section highlights the aesthetic and rhetorical functions of these connections. The analysis demonstrates that Al-Jahiz's discourse is rich in pronouns, conjunctions, conditionals, and repetitions, and is further characterized by synonymy, antithesis, and allusion, reflecting dialectical energy and cultural depth.

The findings reveal that such connections form the backbone of Al-Jahiz's texts, serving both as argumentative tools to support his ideas and as rhetorical strategies to express irony and sarcasm. The study also shows how the notion of "text" shifted from being viewed in Arab heritage as self-contained speech to becoming, a major semantic unit. Al-Jahiz emerges as a pioneer in bridging rhetorical tradition with structural awareness of the text. Numerical statistics further reinforced these conclusions, confirming the centrality of linguistic connections in his satirical discourse.

Keywords: linguistic connections – Al-Jahiz's letters – satirical discourse – textual analysis.

المقدمة:

الروابط اللغوية من أبرز مظاهر التماسك النصي التي اهتمت بها لسانياتُ النص بوصفها مكونًا بنائيًّا داخليًّا يسهم في تماسك الخطاب، وانتظام أجزائه، وتحديد علاقات عناصره النحوية والدلالية والسياقية، وذلك في ضوء ما أقرّته النظرياتُ اللسانية الحديثة من أنَّ النَّص ليس مجرد تجميع لجملٍ مفصولة أو تراكيب لغوية مستقلة؛ بل هو وحدة دلالية كبرى تنشأ عن تفاعل هذه الجمل فيما بينها ضمن شبكة من الروابط المتنوعة التي تحفظ له اتساقه الشكلي وانسجامه المعنوي[1]. ومن هذا المنظور التركيبي الوظيفي، أمست الروابط بمختلف أنواعها – النحوية، والمعجمية، والإحالية، والتنظيمية – عناصر حاسمة في تحقيق "نصّيّة" الخطاب، وضمان تحققه كيانًا تواصليًّا مكتملًا.

وتزداد أهمية دراسة الروابط اللغوية إذا ما أُسقط هذا المفهوم على النصوص التراثية، وخصوصًا النصوص التي تُصنَّف ضمن الأدب الوظيفي أو الرسائل البلاغية؛ لِمَا تحمله من تنظيمٍ دقيقٍ في بنائها الداخلي، وسياقات تداولية كثيفة في استراتيجياتها الخطابية. ومن أبرز تلك النماذج رسائل الجاحظ التي تُمثل قمة البيان العربي في عصره، وتكشف عن وعي لغوي وأسلوبي متقدم يَعبُر حدود الجملة إلى مستوى الخطاب.

وضمن هذا المتن الثرّ، يُشكّل باب الهجاء فيها – بوصفه أحد الأبواب البلاغية الأكثر تركيبًا من حيثُ: المقصد، والأسلوب، والتصعيد الحجاجي–

---

(١) ينظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص.٤٥؛ نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصاً، ص.١٢.

ميدانًا خصبًا للكشف عن الكيفية التي بُنيت بها الروابط اللغوية لتخدم أهدافاً هجائية، حجاجية، تداولية، لا تنفصل عن البناء البلاغي للنص.

ولئن كان الهجاءُ نوعًا من الخطاب الهجومي الذي يستهدف النيل من الآخر وتشويه صورته، فإنَّه يعتمد على منظومةٍ لغويةٍ مُحكمةٍ تُسهم الروابط فيها بدورٍ فعّال في ترتيب المعاني، وتوجيه القارئ، وتوليد مفارقات دلالية ونفسية في آن. فلا يُتصوّر أنْ يكون الهجاءُ فعّالًا ومؤثّرًا ما لم يكن مترابطَ البنية، متماسكَ السبك، دقيقَ الترتيب الداخلي.

ولهذا، فإنَّ تحليلَ هذه الظاهرة في ضوء لسانيات النص يتيح لنا فهمًا عميقًا للبنية الخفية التي يقوم عليها الخطاب الهجائي عند الجاحظ، ومدى وعيه المبكر بالمقومات التي تجعل من كلامه نصًّا لا مجرد كلام مرسل.

وقد اخترتُ في هذا البحث أنْ يُركّز على باب الهجاء تحديدًا في رسائل الجاحظ؛ لأنَّ هذا الباب يجمع بين الفاعلية الأسلوبية والعمق الدلالي، ويتيح فرصةً لملاحظة اشتغال الروابط اللغوية على مستويات عدّة: نحوية، ومعجمية، وإحالية، وجمالية بلاغية. وهي روابطُ لا تكتفي بتحقيق الاتساق؛ بل تسهم كذلك في بناء الإيقاعِ، والهجاء المرح والساخر، في توازنٍ دقيقٍ بين الوظيفة التعبيرية والبلاغية والتداولية.

مشكلة البحث:

ينطلق هذا البحث من إشكالية مركزية مفادها: كيف وظَّف الجاحظُ الروابطَ اللغوية – بمختلف مستوياتها – لتحقيق تماسك نصوصه الهجائية في

رسائله؟ وكيف أسهمت هذه الروابط في خدمة الخطاب الحجاجي والبلاغي ضمن السياق الثقافي الذي ينتمي إليه؟

وتتفرَّع عن هذه الإشكالية أسئلةٌ جزئيةٌ مثل: ما الأنواع الأكثر حضورًا من الروابط في خطاب الهجاء؟ وما وظائفها الأسلوبية والدلالية؟ وهل تتجلَّى لدى الجاحظ ملامحُ وعي نصيٍّ يسبق المنظورات اللسانية الحديثة في ترابط النص؟

أهداف البحث:

ويهدف هذا البحث إلى سدِّ هذه الثغرة من خلال تحليل الروابط: النحوية، والمعجمية، والإحالية في "باب الهجاء" في رسائل الجاحظ، وبيان وظائفها: التكوينية، والتداولية، والجمالية في ضوء لسانيات النص، وعند التفصيل يسعى إلى:

١. تحليل الروابط اللغوية في باب الهجاء من رسائل الجاحظ تحليلًا نصّيًّا دقيقًا.
٢. الكشف عن الوظائف: التداولية، والجمالية لهذه الروابط.
٣. بيان العلاقة بين ترابط البنية النصية والهجاء غرضًا بلاغيًّا.
٤. ربط المفاهيم اللسانية الحديثة بنصوصٍ تراثيةٍ عربيةٍ تُؤسس لفَهْمٍ جديدٍ للخطاب العربي القديم.

وسيُعتمد في هذا البحث المنهج اللساني النصي القائم على تحليل البنية الداخلية للنص، مستفيدًا من التصورات التي قدَّمها علماءُ، مثل:

خطّابي، والأزهر الزناد، وجميل حمداوي، وروبرت دي بوجراند، وتمام حسان، ومحمد حماسة، وغيرهم ممن اهتموا بتحليل العلاقات النصية داخل الخطاب.

كما سيتوقف عند المعطيات التي تكشف عنها رسائلُ الجاحظ نفسها، لا باعتبارها مادةً بلاغيةً فحسب؛ بل باعتبارها نماذج لغوية قائمة على الوعي بالتركيب النصي.

الدراسات السابقة:

شهدت رسائل الجاحظ اهتمامًا متزايدًا في البحث اللساني العربي، ولا سيّما من زاوية التحليل النصي والحجاجي. وقد ركزت بعض الدراسات الحديثة على توظيف الروابط اللغوية في الخطاب الجاحظي، وإنْ لم تُفرِد باب الهجاء تحديدًا بالدراسة؛ مِمَّا يترك مجالًا مفتوحًا لإسهامٍ بحثي نوعي، ومن أبرز هذه الدراسات:

١- دراسة **سليمة محفوظي (2021)** بعنوان *"حجاجية الروابط اللغوية: نماذج مختارة من رسائل الجاحظ الأدبية"* ، وقد تناولت فيها دور الروابط بوصفها أدوات حجاجية تُسهم في تنظيم العلاقات بين الوحدات النصية، وتخدم بناء الخطاب الإقناعي. وركّزت على الوظيفة الحجاجية للربط في السياقات الجدالية داخل الرسائل، (محفوظي، ٢٠٢١)؛ ولكنها لم تتطرّق لنصوص الهجاء بالدراسة.

٢- دراسة **محمد دجمي (2023)** بعنوان *"أثر الروابط الحجاجية في نماذج مختارة من رسائل الجاحظ الأدبية (دراسة تداولية)"* لتتوسع في البعد التداولي للربط؛ حيث بينت كيف تُسهم أدوات الربط في توجيه المتلقي

وتحقيق المقصـــد الحواري للخطـاب الجـاحظي(دجمي، ٢٠٢٣). وقـد اسـتندت الدراسـة إلى مفاهيم التداولية الحجاجية، وركّزت على أمثلة من رسائل متنوعة؛ ولكنها – أيضًا – لم تتطرّق لنصوص الهجاء بالدراسة.

٣- دراسة **محمد مشبال** الموسومة بـــ*"السرد الحجاجي في رسائل الجاحظ"* مقاربة نوعية للبنية الحجاجية داخل الرســائل، وبيّنت كيف يُبنى الحجاج عبر آليات السرد والتدرج البلاغي، مع ما يتطلبه ذلك من تماسك داخلي تُسهم فيه الروابط اللغوية بدرجة كبيرة.

وعلى الرغم من أنَّ الدراسة لم تُفرد فصلًا خاصًّا للروابط؛ إلَّا أنَّها أبرزتْ وظائفها في تنظيم المتواليات الســـردية، وحمل الحجة عبر التكرار والإحالة والمقابلة (مشبال، د.ت).

ورغم أهمية هذه الجهود، فإنها **لم تُفرد "باب الهجاء" من رسـائل الجاحظ موضــوعًا مســتقلًا للتحليل النصــي التطبيقي**، فغالبها ركّز على الرســائل العامة، أو الخطاب الجدلي، أو وظّف نصــوصَ الجاحظ لأغراضٍ نظرية، دون الدخول في تحليل الروابط اللغوية بوصـفها مكوّنًا بنائيًّا جماليًّا في نصٍّ هجائيٍّ مخصوص، وهو ما يتصدى له هذا البحث.

والبحث ينقسم إلى ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: لسانيات النص والروابط اللغوية، المفاهيم والمنهج.
- المبحث الثاني: الروابط اللغوية في خطاب الهجاء في رسائل الجاحظ.
- المبحث الثالث: البنية الجمالية والبلاغية للروابط في خطاب الهجاء عند الجاحظ.

ومن خلال هذه المباحث، يسعى البحث إلى الإسهام في قراءةٍ جديدةٍ للتراث العربي بمنظارٍ لسانيٍّ حديث، يكشف عن أنَّ النص العربي القديم أكثرُ عمقًا وتماسكًا مما يُظن، وأنَّ الروابطَ فيه ليستْ مجرد عناصر تركيبية؛ بل أدوات حجاجية وبنيوية وجمالية في آنٍ.

المبحث الأول: لسانيات النص والروابط اللغوية، المفاهيم والمنهج

المطلب الأول: مدخل إلى لسانيات النص:

لم يكن مصطلح "النص" في الدراسات اللغوية القديمة والحديثة على درجةٍ واحدةٍ من الوضوح أو الدقة الاصطلاحية؛ إذ مرّ بمراحل من التحول الدلالي والمنهجي. ففي التصور الذي ساد الدراسات النحوية والبلاغية العربية، كان "النص" يُفهم غالبًا على أنَّه الكلام المروي أو القول التام المعنى، دون تمييزٍ صارمٍ بينه وبين غيره من وحدات القول الكبرى؛ كالكلام أو الخطاب، فالكلام هو "اللفظ المركب المفيد بالوضع"[1]. وقد اعتُبر النص- في هذا الإطار- وحدة لغوية مكتفية بذاتها، تتحقق فيها شروط الصحة النحوية والدلالة التامة دون الدخول في تحليل العلاقات التي تربط بين الجمل في نص أكبر.

ومع ظهور البنيوية وما بعدها، انتقل مفهوم "النص" إلى أفق أوسع، فأصبح يُدرس باعتباره وحدة دلالية كبرى، تتجاوز حدود الجملة، وتشمل العلاقات التي تربط بين الجمل والمقاطع لتشكيل كيان متماسك. وقد أرسى روبرت دي بوجراند وولفجانج درسلر الأساس النظري لهذا التحول، حين

---

[1] جامع الدروس العربية، الغلاييني، ٩/١.

حدّدا "النصية" بسبعة معايير؛ أبرزها: الاتساق، والانسجام، إضافةً إلى القصدية، والقبول، والمقام، والتناص، والإعلامية. وبذلك، صار "النص" في المنظور اللساني الحديث يُدرس وفق معايير شكلية، ودلالية، وتداولية متكاملة(١).

وقد استفادت الدراسات العربية الحديثة من هذا التحول، فظهرت مؤلفات تعيد قراءة التراث العربي من زاوية نصية، كما فعل أحد الباحثين الذي رأى أنَّ النص "كيان لغوي مكتمل المعنى، لا يُقاس تمامه بعدد جمله؛ وإنَّما بتمام بنيته واتساقها"(٢). وكما أكَّد آخرُ على أنَّ النص "نسيج لغوي تنتظم فيه العلاقات النحوية والدلالية والإحالية"(٣)، مما يضعه في موقع يتجاوز الرؤية الجملية الضيقة، وهو ما يراه بعضُ المحققين؛ حيث اشترط تفاعلًا متبادلًا بين النحو والدلالة، يتبادل فيه كُلُّ عنصرٍ الإمداد بالمعنى والتحديد في سياق الجملة؛ لأنَّ التحليل النحوي في مداره التقليدي لم يكن معنيًّا باستقصاء المعنى الكلي للجملة أو دلالتها الاجتماعية المرتبطة بالمقام(٤)، وإنما اقتصر على روابط جزئية مبنوية أو معنوية، دون جمعها في نسقٍ متكامل يضبط انتظام النص(٥).

---

(١) ينظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص.٢٣.

(٢) ينظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص.١٥.

(٣) ينظر: نسيج النص، ص.١١.

(٤) ينظر: النحو والدلالة، مدخل إلى دراسة المعنى النحوي الدلالي، ص.١١٣.

(٥) ينظر: في اللسانيات ونحو النص، ص.٣٥.

وقد ذهب بعضُ الباحثين[1] إلى أن النص يمكن أنْ يكون مادةً لدراسة الخطاب؛ أي أن الخطاب أوسعُ دائرةً من النص؛ لأنَّه يشمل الظروف الخارجية التي أُنتج فيها النص، وخصائص المرسل والمتلقي، والمقام الذي تم فيه التفاعل اللغوي. في حين يُركّز التحليلُ النَّصيُّ على البنية اللغوية الداخلية، والعلاقات الرابطة بين عناصر النص نفسه؛ ولهذا، فإنَّ النَّص يُعدُّ مكوّنًا من مُكوِّنات الخطاب؛ لكنَّه ليس مرادفًا له.

وأما في الدراسات العربية الحديثة فقد جرى توظيف هذا التمييز لإعادة قراءة النصوص التراثية، مثل رسائل الجاحظ؛ إذ يمكن تحليلها بوصفها نصوصًا مكتملة البنية، وفي الوقت نفسه، بوصفها خطابات مشبعة بالوظائف التداولية، مرتبطة بسياقاتها التاريخية والاجتماعية والفكرية.

وهنا يمثل مفهوم التماسك والاتساق ركيزتين أساسيتين في لسانيات النص، وبدونهما يفقد النص خاصيته النصية. وقد فرّق بوجراند بين التماسك باعتباره انتظام العلاقات الشكلية واللغوية بين مكونات النص، والاتساق باعتباره انتظام العلاقات الدلالية والمنطقية التي تجعل النص مفهومًا ومترابط المعنى[2].

فالتماسك يتعلق بآليات الربط الظاهرة في النص، مثل: أدوات العطف، والضمائر، وأدوات الشرط، والإحالة، والتكرار المعجمي. وهذه

---

(1) جميل حمداوي، محاضرات في لسانيات النص، ص.٢٨.

(2) ينظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص.٥٤.

الآليات هي التي تمنح النص سبكًا لغويًّا متماسكًا، على نحو ما فصّله بعضُهم[1] في دراسته لنظام الارتباط النحوي.

أما الاتساق، فيرتبط بالمعنى الكلي للنص وبقدرته على نقل رسالةٍ مفهومةٍ ومتكاملةٍ؛ بحيث تتسق أجزاؤه منطقيًّا، حتى وإنْ لم ترتبطْ جميعُ الجمل فيه بوسائط لغوية ظاهرة.

وكما يرى بعضُ الباحثين[2] أنَّ الاتساق يتحقق حين "تتكامل الدلالات الجزئية لتشكّل وحدةً دلاليةً عليا"، وهي عمليةٌ ذهنيةٌ تتعلق بالقارئ بقدرِ ما تتعلَّق بالنَّص.

وبين التماسك والاتساق تكاملٌ واضحٌ، فالأول يهتم بالروابط اللغوية الظاهرة، والثاني يهتم بالبنية الدلالية الكلية، وكلاهما ضروري لإنتاج نصية حقيقية.

ولذا؛ فإنَّ التحليل في هذا البحث سينطلق من تلك الأُطر؛ إذ إنَّ فهم تطور مفهوم "النص"، والتمييز بينه وبين "الخطاب"، وضبط مفهومَي التماسك والاتساق، وتصنيف الروابط النصية، هو ركيزة تمكننا من الانتقال إلى تحليل الروابط اللغوية في "باب الهجاء" من رسائل الجاحظ، وبيان وظائفها النصية والبلاغية.

ولا شكّ أن تحليل الترابط النصي يقتضي تفكيك النص إلى وحدات وظيفية وبنيوية تكشف عناصر الربط فيه؛ إذ لا يكفي التوقف عند الكلمات

---

(1) ينظر: نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، ص.٣٣.

(2) ينظر: نسيج النص، ص.١٤.

أو الجمل في مستواها اللغوي الصرف؛ بل يلزم إدراك بنيته العليا وهيكله العام، مع استحضار الخصائص النوعية للجنس الأدبي الذي ينتمي إليه النص، فقراءة الرواية – مثلًا – تستدعي توقع مكوناتها وفق خبرتنا الجمالية والإنسانية، وهو ما يختلف عن قراءة القصيدة أو المقال. فالتعرف إلى الوحدات المكونة للنص في ضوء وظيفتها وعلاقتها بالكل شرطٌ أساس للكشف عن انتظامه الداخلي وتحديد سماته المميزة[1].

وإذا كان الحديث عن التماسك النصي يتصدر مجال لسانيات النص وتحليل الخطاب، فإنَّ الجذور الأولى لهذا المفهوم ممتدةٌ في التراث العربي البلاغي والنحوي منذ قرون. فقد تنبَّه عبدُ القاهر إلى أنَّ الكلام لا يقوم له وزنٌ، ولا يكتمل له نظامٌ إلَّا إذا تعلَّقتْ أجزاؤه بعضها ببعض، وجُعل بعضها بسببٍ من بعض. وهو يقول في نصٍّ بليغِ الدلالة: "واعلم أنَّك إذا رجعْتَ إلى نفسِك، علمْتَ علمًا لا يعترضه الشك: أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، وينبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقل..."[2].

إنَّ هذا التصور يضعنا أمام حقيقة مركزية في فهم التماسك: أنَّ الترتيب بين الكلمات في السياق الواحد ليس مسألةً شكليَّةً فحسب؛ بل هو جوهرُ البناء النصي. فعبد القاهر جعل هذا التعليق والبناء أساسًا للنظم؛ أي المزية الكبرى للكلام البليغ، ورأى أنَّ العلاقاتِ النحوية –كالفاعلية والمفعولية

---

[1] ينظر: محاضرات في لسانيات النص، ص١٧.

[2] دلائل الإعجاز، ٥٥/١.

والإسناد والوصفية – ليستْ إلَّا صورًا لهذا الربط الداخلي الذي يمنح النص تماسكه ووحدته.

وقد قرأ تمام حسان هذه الفكرة بوعي حديث، فاعتبرها من قبيل "الترتيب البابي"؛ أي: الترتيب بين الأبواب النحوية في السياق، وإنْ خالف عبد القاهر في بعض التفاصيل. فقد أشار إلى أنَّ عبد القاهر– وهو يربط بين التماسك والسياق– كان يتحدث عن معنى وظيفي، لا عن معنى معجمي أو دلالي صرف، وأنَّ هذا المعنى يتعلّق بوظيفة العنصر في السياق النص، ومن هنا، اعتبر حسان التماسك شرطًا من شروط البلاغة، يقوم على الربط السياقي الذي يجعل لكل عنصرٍ مكانه ودوره في النص[1].

وفي تحديده لجهات الترابط، قسّم الوسائل التي تحقق التماسك إلى ثلاثة أنواع كبرى: وسائل التماسك السياقي؛ وهي الروابط التي تتيح انتقال المعنى بين الجمل والفقرات بسلاسة، وتجعل بعضها نتيجةً أو تفصيلًا لبعض. ووسائل التوافق السياقي التي تضمن التوافق الإعرابي والدلالي بين عناصر النص؛ كاتفاق الفعل والفاعل، أو المطابقة بين النعت والمنعوت. ووسائل التأثير السياقي؛ وهي العلاقات الإسنادية التي تحدد وظيفة كل عنصر في التركيب، وتربطه بالعناصر الأخرى ربطًا يُؤثِّر في المعنى العام.

ويرى في انسجام مع ما ذهب إليه عبد القاهر، أنَّ النص بطبيعته كيان دلالي، وأنَّ دلالته العامة لا تتكون من مجموع دلالات مفرداته فحسب؛

---

[1] ينظر: مناهج البحث في اللغة، ص.٢٠٤.

بل من انتظام هذه المفردات في سياقٍ متماسكٍ؛ بحيث يفسِّر كل جزء منه في ضوء الكل، وهو ما سماه "التفسير النسبي"[1].

ويذهب الزناد[2] إلى أنَّ التماسك شرطٌ لا غنى عنه لتحقق النصية، فالمتكلم قد ينطق بما هو دون الجملة، ويفهم السامع منه مرادًا كاملًا، اعتمادًا على المقام وما يتيحه من عناصر متمّمة: لفظية، أو غير لفظية؛ تجعل اللاحق قائمًا على السابق. وهذا التمام – في نظره – يقوم على الربط اللفظي المباشر، أو على الربط السياقي غير اللفظي الذي تكمله المعطيات الحسية والمعرفية.

ويُبيّن أنَّ نحو النَّص يَتحصَّل من جملةٍ من العلاقات الإسنادية التي تتولَّد منها وحداتٌ دلاليةٌ عليا، من خلال آليات الربط، والإحالة، والحذف، والاستبدال، وغيرها من الوسائل التي تحقق التماسك والاتساق والانسجام.

المطلب الثاني: أنواع الروابط اللغوية ووظائفها النصية

إنَّ قراءة عناصر الربط في ضوء هذا التراث، وفي ضوء لسانيات النص المعاصرة؛ تكشف عن امتداد نظري ومنهجي يربط الماضي بالحاضر، ويؤكد أنَّ التماسك النصي ليس اكتشافًا معاصرًا خالصًا؛ بل هو مبدأ راسخ في الفكر اللغوي العربي منذ قرون، وإنْ اختلفت الأُطر والمصطلحات.

فكرة التماسك النصي –كما برزت في البلاغة العربية والنحو– تقوم على مبدأ الربط المحكم بين عناصر الكلام، بحيث يُحكم إسناد بعضها إلى

---

[1] ينظر: مناهج البحث في اللغة، ص.٢٠٥.

[2] ينظر: نسيج النص، ص.١٦.

بعض، ويُبنى اللاحق على السابق، في انتظامٍ يحقق الغرض البلاغي والدلالي. وهذا المبدأ تطور في اللسانيات الحديثة إلى نظريةٍ متكاملة، تُصنِّف الروابط، وتدرس وظائفها في ضوء معايير نصية دقيقة.

فإنْ عدنا إلى التراث النحوي، وجدنا إشاراتٍ ثريةً إلى ما نسميه اليوم بـ"الروابط النصية"، وإنْ جاءتْ في إطار الجملة لا النص. فالرّضي تناول في باب المبتدأ والخبر مسألةَ تعدد المبتدآت، وضرب مثالًا شهيرًا: "زيدٌ أبوه أخوه عمه خاله ابنه ابنته صهرها جاريته سيدها صديقه قادم"[1] وبيّن أنَّ المبتدأ الأخير مع خبره يكون خبرًا عمَّا قبله بلا فصل، وأنَّه إذا لم تضف المبتدآت إلى ضمائر ما قبلها، لزم الإتيان بالعوائد بعد الخبر الأخير؛ لربط كل مبتدأ بما قبله. وهذه المعالجة تمثّل – في جوهرها – تحليلاً لآليات الربط بين وحدات إسنادية متتابعة، وهي فكرة قريبة مما يفعله لسانيّ النص حين يدرس إحكام الروابط في النصوص الطويلة.

وقد فرّق النحاة بين الجملة البسيطة والجملة التي تتعدد فيها نواحي الإسناد وتطول؛ إذ تحتاج الثانيةُ إلى عددٍ أكبر من الروابط والعوائد؛ لضبط علاقات المعنى والإسناد. وهذا التفريق يعكس إدراكًا مبكرًا لمبدأ التماسك، وإنْ ظل في حدود الجملة.

إنَّ ما نجده عند عبد القاهر والرضي وحسان والزناد، نجد صداه في التصورات الغربية المعاصرة. فروبرت آلان دي بوجراند يرى أنَّ النص حدثٌ تواصلي تحكمه سبعة معايير نصية؛ منها: "السبك" (الربط النحوي)،

---

[1] شرح الكافية، ٢٣٥/١.

و"الحبك" (التماســـك الدلالي). فإذا غاب واحدٌ من هذه المعايير فقدَ النَّصُ صفة النصية[١].

وكذلك يؤكد ميشـــال آدم أنَّ النَّصَّ ليس تتابعًا اعتباطيًّا من الألفاظ والجمل؛ بل وحدة يحددها إطارٌ نصـــيٌّ جامعٌ، تُحكمه العلاقات النحوية، والإحالات، والعوائد التي تربط أجزاءَه[٢].

فعبد القاهر أســـس منطق النظم على مبدأ التعليق والبناء، وحســـان نظّر له بمفهوم الترتيب البابي ووسـائل التماسـك السـياقي، والزناد عمّق النظر فيه من زاوية المقام وآلياته المتمّمة، بينما اللســـانيون الغربيون وضـعوه في إطار معايير النصية.

وإذا كان النَّصُّ -كما استقرَّ في نظرية لسانياتِ النَّصِّ- وحدةً دلاليةً متكاملةً؛ فإنَّ هذه الوحدة لا تتأتّى إلا من خلال منظومةٍ دقيقةٍ من الروابط التي تشـدُّ أجزاءَه، وتربط عناصـرَه بعضـها ببعض. والروابط - على تنوعها - ليسـتْ مجردَ أدواتٍ تقنية جامدة، وإنَّما هي وسـائلُ فاعلة في تحقيق التماسـك والاتسـاق، وفي تشكيل النسيج النَّصي بما يوافق مقاصد المتكلم، ويستجيب لانتظارات المتلقي[٣].

---

[١] ينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ص.٣٣.

[٢] ينظر: نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص.١٢٨.

[٣] ينظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص.٦٥؛ نسيج النص، ص.١٨.

وهنا يلزم التنبّه إلى أنَّ تلك الروابطَ النَّصـيَّةَ هي وسـائطُ لغوية، أو معجمية، أو إحالية مسـاعدة في وَصْـل عناصـر النَّص ببعضـها البعض- بما يحقق التماسك والاتساق في آنٍ واحد- هي روابط متعددة[١] منها:

الروابط النحوية التي تشـمل على الضـمائر، وأدوات العطف، وأدوات الشـرط، وأدوات التوكيد. وهي وسـائلُ ربطٍ تُحافظ على ترابط البنية التركيبية للنَّصِّ.

والروابط المعجميـة التي تقوم على التكرار اللفظي، أو الترادف، أو التضـاد، أو الانتماء إلى حقلٍ مُعجميٍّ واحد. وقد نبَّه بعضُ الباحثين[٢] إلى أنَّ الحقول المعجمية تُسهم في خلقِ تماسكٍ دلالي بين أجزاء النص.

والروابط الإحالية المتمثّلة في الإشـاراتِ إلى عناصـر سـابقة أو لاحقة في النص (الإحالة الداخلية)، أو الإشـارات إلى عناصـر خارج النص (الإحالة الخارجية). وتُعتبر الإحالة بالضمائر وبأسماء الإشارة من أهم صورها.

والروابط الـدلاليـة الحجـاجيـة المنظمـة للعلاقـات المنطقيـة بين الجمـل والفقرات، مثل: السببية، والشرطية، والتفسيرية، والاستنتاجية. وتلك الروابط تمنح النص قوة حجاجية متماسكة[٣] بل هي - أيضًا - مُكوِّنٌ جمالي، يمكن أنْ يحمل قيمًا إيقاعية أو بلاغية، وخاصـةً في النُّصـوص الأدبية مثل رسـائل

---

[١] ينظر: السابق، ص.٦٥.

[٢] ينظر: تحليل الخطاب الشعري، ثنائية الاتساق والانسجام، ص.٤١.

[٣] ينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ص.٥٣.

الجاحظ؛ حيث تتحقق للروابط وظيفة مزدوجة: الربط البنيوي، والإنجاز البلاغي[1].

وتعدُّد الروابط بتعدُّد المستويات التي تعمل فيها: فالنحوية تتصل بالبنية التركيبية، والمعجمية تستند إلى الحقول الدلالية، والإحالية تُحيل على مكونات النص أو خارجه، والتداولية توجِّه مسار الخطاب، وتضبط تفاعله مع المخاطب. وفيما يأتي عرضٌ لهذه الأنواع، مع بيان وظائفها النصية، مقرونًا بالأمثلة والشواهد.

١- الروابط النحوية: وهي الوسائط التي تصل بين الجمل أو العبارات على مستوى البنية التركيبية، وتحافظ على انتظام العلاقات النحوية بين أجزاء النص. ومن أهم صورها:

أ. أدوات العطف: أبرز الوسائل التي تحقّق التماسك التركيبي؛ إذ تُنظِّم تتابع الجمل، وتربطها بعلاقاتٍ زمنية أو سببية أو تراكمية. فأدوات العطف في العربية تسهم في إدارة تدفّق المعلومات داخل النص، وتحدد العلاقات المنطقية بين أجزائه[2]. فالواو- مثلًا - تفيد مطلق الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه، من غير دلالةٍ على ترتيب زمني بالضرورة، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[3]، حيث تحقّق

---

[1] ينظر: نسيج النص، ص.١٨.

[2] ينظر: نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، ص.٤١.

[3] سورة العنكبوت: ١٥.

الواو ربطًا دلاليًّا يعكس تماسك الحدث. أما الفاء، فتفيد التعقيب والترتيب الزمني، مثل قوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1]، وهي رابطةٌ تُحافظ على تتابع المعنى وإحكام سبك السياق[2].

ب. اسم الإشارة: اتفق النحاة على أنَّ من صور ربط المبتدأ بجملة الخبر استعمال اسم الإشارة، وعدّوه من الروابط النحوية المعتبرة في الجملة الاسمية، بشرط أنْ يكون هذا الاسمُ عائدًا على المبتدأ، وإلا انتفى عنه وصفُ الربط، وأنَّ جميعَ أسماء الإشارة تصلح للربط إذا طابقت المبتدأ في العدد والنوع[3].

وقد أولى علماء العربية – قديمًا وحديثًا – عنايةً خاصَّةً بهذه الظاهرة، فبينما حصر النحاة وظيفة اسم الإشارة الرابط في الجملة الاسمية، نجد اللسانيين المعاصرين يوسّعون مجاله ليشمل الجملة الفعلية أيضًا[4].

أما في التصنيف اللساني الحديث فهناك إمكانيات متعددة لتصنيف الإشارة، منها: الإشارة المحايدة، وتمثلها أداة التعريف (the) في الإنجليزية، والإشارة الظرفية التي تنقسم إلى زمانية (*الآن، غدًا*)، ومكانية (*هنا، هناك*)، وإشارة الانتقاء (*هذا، هؤلاء*)، وإشارة البعد (*ذاك، تلك*)، والقرب (*هذه،*

---

(1) سورة البقرة: ٥٦.

(2) ينظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص.٢٣.

(3) ينظر: التذييل والتكميل، ١٠/١٦٤، شرح الأشموني، ١/١٨٤.

(4) ينظر: الرابط وأثره في التراكيب في العربية، ص.١٥٦.

هذا)، ومن ثَمّ يتضح أنَّ اسم الإشارة في العربية يؤدي دورًا مُركبًّا؛ إذ يجمع بين الوظيفة النحوية المتمثّلة في ربط عناصر الجملة، والوظيفة التداولية التي تحدد موقع المشار إليه في السياق الزماني والمكاني [١].

ج. الضمائر: أرقى أدوات الربط النحوي؛ إذ تقوم بوظيفة الإحالة النصية وتجنّب التكرار؛ مما يعزز الاقتصاد اللغوي ويزيد التماسك. فالضمير يرد متصلًا أو منفصلًا، وقد يكون بارزًا؛ كألف الاثنين في نحو الرجلان قاما؛ حيث هي ضمير مبني في محل رفع فاعل، والجملة خبر المبتدأ، والضمير هو الرابط. وقد يستتر وجوبًا؛ كما في: أنت تحب العلم، فالفاعل ضمير مستتر تقديره "أنت"، والجملة خبر عن المبتدأ. والضمير قد يكون للرفع، أو للنصب؛ كما في: محمدٌ أحترمه، أو للجر؛ كقولك: محمدٌ أبوه مسافر. وقد يُقدَّر؛ كما في قولهم: السمن منوان بدرهم، فجملة "منوان بدرهم" خبر للمبتدأ، والضمير المقدر رابطها[٢]. وهو يعيد القارئ إلى عنصر سبَق ذكره، ويُبقي المرجع حاضرًا في السياق. وفي قوله تعالى:﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[٣] الضمير "إني" يحيل على موسى المذكور قبله مباشرة. وهي لا تؤدي

---

[١] ينظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص.١٩.

[٢] أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ١/١٩٦.

[٣] سورة الأعراف: ١٠٤.

الربط التركيبي فحسب؛ بل تسهم في الحفاظ على انسجام الإحالة طوال النص[١].

د. الشرط: تُنشئ أدواتُ الشَّرط علاقةً سببيَّةً أو احتمالية بين الجمل، وتحقق ترابطًا دلاليًّا مشروطًا، مثل قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾[٢]؛ حيث تُقيم أداة الشرط "إنْ" علاقةً سببيَّةً واضحةً، تجعل المعنى الثاني مترتبًا على تحقق الأول. وقد عدَّ بعضُ الباحثين[٣] أدواتِ الشَّرْط من الروابط البنيوية التي تُنظم الحجاج في النصوص؛ لأنَّها تُؤطر العلاقة بين السبب والنتيجة.

هـ. أدوات التوكيد: تعمل على ترسيخ العلاقة بين مكونات النص، وتُضفي على المعنى قوةً إقناعيَّةً. ففي قول الجاحظ في إحدى رسائله: "إنَّك لَتعلمُ أنِّي ما جئتُك إلَّا ناصحًا"، نجد أنَّ "إنَّ" واللامَ في "لتعلم" تُعزّزان الرَّبط الدلالي والحجاجي في آنٍ واحد. ويُوضِّح حماسة أنَّ التوكيد يزيد من التماسك الحجاجي للنَّصِّ؛ لأنَّه يُرسّخ الفكرة في ذهن المتلقي[٤].

---

[١] ينظر: نسيج النص، ص.٢١.

[٢] سورة آل عمران: ١٦٠.

[٣] ينظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص.٧٨.

[٤] ينظر: النحو والدلالة، مدخل إلى دراسة المعنى النحوي الدلالي، ص.٩٢.

١- **الروابط المعجمية**: وهي تقوم على العلاقات الدلالية بين المفردات، وتُسهم في تحقيق الاتساق على مستوى المعجم، وتتمثّل في:

أ. التكرار: من الظواهر اللغوية العالمية، ويلجأ إليه الشعراءُ لأغراضٍ فنيَّةٍ وجماليَّة؛ إذ يُحقق توازنًا موسيقيًّا؛ يجعل النغم أقدر على استثارة المتلقي والتأثير فيه. وحقيقته إعادة للفظ؛ لذا غدا التكرار المعجمي من أبرز صور التماسك النصي التي وُظفتْ في اللغة، وظلَّ وسيلةً للتوكيد والإيقاع، يتجدد حضورها في كل العصور؛ لأنَّه يُثبّت الحقول الدلالية في النص[1]، وسواء أكان لفظيًّاً أم معنويًّا فهو يُعزّز حضور الفكرة ويخلق إيقاعًا داخليًّا. وفي خطاب الجاحظ الهجائي - هنا - يكرر أوصافًا بعينها للمهجوّ؛ لتثبيت الصورة الذهنية، مثل "جبان"، و"ضعيف"، و"مهين."

ب. التضاد: الرابط بين الكلمات عبر علاقةِ تقابلٍ معنوي؛ مثل: "الحياة/الموت"، "الحق/الباطل". هذا التضاد يخلق تماسكًا دلاليًّا يثري المعنى. ومثله قول المتنبي:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيْمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللئِيْمَ تَمَرَّدَا

فالتضاد بين "الكريم" و"اللئيم" يحافظ على وحدة الحقل الدلالي.

٢- **الحقول الدلالية** التي تقوم على تجميع مفرداتٍ تنتمي إلى مجالٍ دلاليّ واحدٍ؛ مِمَّا يمنح النَّصَّ وحدةً موضوعيةً، ففي نصوص الهجاء قد يتجمع معجم الجسد أو الأخلاق في نسقٍ مترابط.

---

[1] ينظر: تحليل الخطاب الشعري، ثنائية الاتساق والانسجام، ص.٤١.

وقد أشار بعضُ الباحثين [١] إلى أنَّ الحقول الدلالية تجعل القارئ يتحرك داخل شبكةٍ معجميَّةٍ متماسكة.

٣-الروابط الإحالية: الإحالةُ في منظور النصيين علاقةٌ دلاليةٌ لا تنضبطُ دائمًا بقيودٍ نحويَّة، غير أنَّ اشتراط تطابق الخصائص الدلالية بين المحيل والمحال إليه يربطها بضوابط تركيبية. وتتأثر هذه العناصر بالسياق الاجتماعي، والعوامل الفنية، ومقام النص؛ وفق معايير تنبع من أنظمة معرفية متعددة[٢] .

فهي وسيلةٌ مركزيَّةٌ لضبط العلاقاتِ المرجعية بين عناصر النص، وهي **إحالةٌ داخليةٌ** أو ظاهريةٌ يُحال فيها المخاطب على عنصرٍ لغويٍّ داخل النص نفسِه؛ إمَّا عينًا، أو وصفًا. وقد تكون *قَبلية* إذا عادتْ على مفسَّر سبق التلفظ به، أو *بَعدية* إذا رجعتْ لعنصرٍ إشاريٍّ يردُ لاحقًا في السياق.

وإحالةٌ خارجيةٌ أو خفيّةٌ: توجّه المخاطب إلى مرجعٍ واقعيٍّ خارج البنية النصية، شخصًا كان أو غيره. فتربط اللغة بالسياق[٣]، كما في قوله: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾[٤]، فالضمير في "توارت" يحيل إلى الشمس، دون أن يُذكر لفظها صراحة[٥].

---

[١] ينظر: علم لغة النص، ص.٥٢.

[٢] ينظر: أثر النحو في تماسك النص، ص.٥٨.

[٣] ينظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص.١٧.

[٤] سورة ص:٣٢.

[٥] ينظر: نسيج النص، ص.٢٣.

وتُسمى كذلك إحالة مقامية أو معجمية. وتُعدّ الإحالة بنوعيها من أهم الوسائل التي يعتمد عليها محلل النص لإثبات الاتساق النصي؛ إذ تُسهم بفاعلية في تحقيق الترابط بين أجزاء الخطاب. وتملك كلُّ لغةٍ طبيعية عناصر الإحالة التي تتمثل في: الضمائر، وأسماء الإشارة، وأدوات المقارنة. فهي"العلاقة بين الأسماء ومسمياتها" [١]، ودورها كبير في بناء المعنى وتماسك النص.

٤-**الروابط التداولية التي** تتصل بكيفية إدارة الخطاب وتوجيهه، وتحديد موقع المتلقي منه، وتكون في:

أ. التوجيه، ومن أدواته: "ألَا" التحضيضية، و"أما بعد" تنبه القارئ إلى تحولٍ في مسار الخطاب. في رسائل الجاحظ، يستخدم "اعلم" و"أما بعد" لتوجيه الانتباه.

ب. الاستفهام، وهو أداة تواصلية تُوظَّف لطلب الفهم، أو لإثارة الانتباه، أو للتحريض على التفكير، مثل قوله تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾[٢].

ت. التضمين، ويقصد به إدخال معنى في معنى آخر؛ كَأَنْ يُوظف المتكلمُ عبارةً مأثورةً، أو نصًّا سابقًا دون التصريح بالمصدر؛ مِمَّا يُعمق التماسك الثقافي للنَّص.

---

[١] ينظر: تحليل الخطاب، جون براون بول، ص.٣٦.

[٢] سورة الإنسان:١.

وكما في لغة اليوم نجد في تراثنا نماذج حيّة لتعدد الروابط النصية، ومدونة رسائل الجاحظ تُشكِّل نموذجًا ثريًّا لتعدد تلك الروابط التي تؤدي وظيفةً مزدوجةً، فهي من جهةٍ: تحافظ على التماسك البنيوي للنَّص، ومن جهةٍ أخرى: تُسهم في بناء الحجاج والجمالية؛ مِمَّا يجعلها عنصرًا جوهريًّا في أيِّ تحليلٍ نصي.

المطلب الثالث: منهج دراسة المدوّنة:

١- وصف المدوّنة: هذه الدراسة تدرس مكوَّنًا من نصوصٍ مُنتقاةٍ من "**باب الهجاء**" في *رسائل الجاحظ*، وهو أحد الأبواب التي تكشف بجلاءٍ عن قدرة المؤلف على نسجِ خطابٍ متماسك، يجمعُ بين الحدة الجدلية والدقة الأسلوبية.

الباب يُمثّل فضاءً لغويًّا وخطابيًّا شديد الخصوصية، تتضافر فيه عناصر البنية الإحالية، وأدوات الربط النحوية والمعجمية؛ لتُشكِّل نسيجًا نصيًّا مُحكمًا. ولئن كانت نصوص الجاحظ – في مجملها – تتسم بثراءٍ لغويٍّ وفكري، فإنَّ "باب الهجاء" يتميز بكثافة ظواهر الاتساق والانسجام النصي، وبقدرة المؤلف على تطويع اللغة لخدمة مقاصد حجاجية وجدلية واضحة المعالم[١].

إنَّ اختيار هذا الباب تحديدًا ينبع من كونه نصًّا إبداعيًّا يعكس – في الوقت نفسه – وعيًا تنظيميًّا دقيقًا بالبنية النصية؛ فالقارئ يجد نفسه أمام خطاب مشحون بالأصوات؛ حيث تتعدد الضمائر، وتتنوع مسارات الإحالة،

[١] ينظر: التماسك في اللغة الإنجليزية، ص.٧٦.

وتتداخل الجمل الاسمية والفعلية في تتابعٍ متماســـك. ومن الناحية البنائية، يُقدِّم "باب الهجاء" فرصـــة مثالية لتطبيق أدوات لســـانيات النص جنباً إلى جنب مع التحليل التداولي؛ لما يحتويه مِنْ شـــواهدَ تُمثّل الروابط الإحالية في أوضح صورها، فضلًا عن حضور أساليب الحجاج، والتوكيد، والتقابل؛ التي تُعَدُّ من السِّمات البارزة في خطاب الجاحظ.

ويُلاحظ أنَّ النُّصوص التي يتضمنها هذا الباب ليستْ مجردَ تراكيب لغوية محكومة بصـرامة القواعد؛ بل هي مقاطعُ حية تنبض بالتفاعل الحواري، سـواءٌ كان ذلك التفاعل مباشرًا مع مخاطبٍ معلومٍ، أو غير مباشر مع قارئ ضمني. وهـذا الطـابع التفـاعلي يجعـل الروابط الإحـاليـة أكثر فـاعليـةً؛ إذ لا تكتفي بتحقيق الاتســـاق النصـــي؛ بل تُؤدي دورًا تداوليًّا في تثبيت المواقف، وتقوية الحجة[1].

٢- دواعي الدراسة:

إنَّ الاقتصـــارَ على "باب الهجاء" لم يكن اختيارًا عفويًّا؛ بل جاء استنادًا إلى معايير علميَّةٍ ومنهجيَّةٍ متماسكة، يمكن إجمالها فيما يأتي:

أ. **الثراء الإحالي والربطي** :يحتوي هذا الباب على تنوعٍ واســـعٍ في الروابط النصـــية، بدءًا من الضـــمائر، وأسماء الإشـــارة، ومرورًا بالتَّكرار المعجمي، وأدوات المقارنة، وصـــولًا إلى الروابط الدلالية القائمة على التضـــاد، أو الترادف، أو السببية.

---

[1] ينظر: النص والخطاب والإجراء، ص.٢١٤.

هذه الكثافة الربطية تجعله نصًّا مثاليًّا؛ لتطبيق تصنيفات الروابط[١] التي تنظر إلى الاتساق بوصفه شبكة من العلاقات النصية المترابطة.

ب. **البعد الحواري الجدلي**: يُبنى الخطابُ في "باب الهجاء" على جدليةٍ حادة بين الذات والآخر، ويستعين الجاحظ بأدواتٍ تداولية؛ مثل: الاستفهام الاستنكاري، والسُّخرية، والإحالة التهكمية، وهي استراتيجياتٌ تمنحُ النَّصَّ بُعدًا تداوليًّا غنيًّا، وتزيدُ من تعقيد شبكة الإحالات[٢].

ج. **القيمة التاريخية والثقافية**: لا تقتصرُ دراسةُ هذا الباب على تحليل البنية النصية فحسب؛ بل تمتدُ لتكشف عن ملامحِ الثقافة الجدلية في العصر العباسي، وعن دور اللغة في الصراع الفكري والسياسي والاجتماعي. وهذا البعد الثقافي يزيد من أهمية الدراسة؛ إذ يُمكّن من الربط بين النَّصِّ والتحولات الفكرية التي شهدها القرن الثالث الهجري[٣].

د. **الملاءمة مع أهداف البحث**: يتوافق "باب الهجاء" مع الأهداف الرئيسة للدراسة، والمتمثلة في الدمج بين لسانيات النَّصِّ والتَّحليل التداولي؛ حيث يتيح النص اختبار صلاحية الأدوات النصية الحديثة في تحليل نَصٍّ تُراثي، وفي الوقت نفسِه كشف البعد التفاعلي الذي يميز خطاب الجاحظ[٤].

---

[١] ينظر: التماسك في اللغة الإنجليزية، ص.٧٣.

[٢] ينظر: قضايا النحو في التراث العربي، ص.١٤٥.

[٣] ينظر: المناهج النحوية: دراسة في أصول التفكير النحوي، ص.١٩٨.

[٤] ينظر: الربط النصي في العربية، ص.٢١٩.

٣- حدود الدراسة:

حُدّدت هذه الدراسة بحدودٍ نصيَّةٍ وزمنيَّةٍ واضحة؛ لتفادي التشتت وضمان عمق التحليل:

أ. **حدود نصية**: تقتصر الدراسةُ على النُّصوص الواردة في "باب الهجاء" من *رسائل الجاحظ*، دون التوسع إلى الأبواب الأخرى؛ حتى يُبنى التحليل على وحدةٍ موضوعيةٍ وأسلوبية. وقد اخترْتُ المقاطع التي تتضمن أكبرَ قدرٍ مُمكن من تنوع الروابط، سواء أكانت إحاليَّةً أو دلاليةً؛ لضمان تغطية الظواهر محل الدراسة.

ب. **حدود زمنية**: النُّصوص تعود إلى الفترة العباسية التي عاش فيها الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، وهي فترةٌ تتسم بثراء النثر العربي وتبلور أساليب الجدل والحجاج، بما يجعلها بيئةً خصبة لتحليل الظواهر النصية والتداولية[١]. وتحديد هذا الإطار الزمني يسمح بقراءة النَّصِّ في ضوء سياقِهِ التاريخي، ويجنّب إسقاط المفاهيم الحديثة على النَّصِّ دون مراعاة أصوله الفكرية.

٤- المنهج التحليلي:

تعتمد الدراسة منهجًا تحليليًّا مركبًّا يقوم على الدمج بين مقاربتين: **لسانيات النص** و**التحليل التداولي**؛ حيث يُركِّز التَّحليلُ النَّصيُّ على مظاهر الاتساق والانسجام، وذلك عبر دراسة الروابط الإحالية: (ضمائر الغائب، أسماء الإشارة، أدوات المقارنة)، والتكرار المعجمي، والعلاقات الدلالية؛ مثل:

---

[١] المناهج النحوية: دراسة في أصول التفكير النحوي، ص.٢٠١.

التضاد والترادف. وتستند هذه المقاربةُ إلى تصورٍ للاتساق بوصفه شبكةً من العلاقات النَّصية التي تجعل الخطابَ وحدةً مُترابطةً[1]. ويُركزِّ **التحليل التداولي** بدراسة النَّصِّ في سياق مقامه التخاطبي، مع التركيز على أدوار المتخاطبين، والأغراض البلاغية، واستراتيجيات الإقناع والتأثير. ويكشف هذا التحليل كيف يُوظِّف الجاحظُ الروابطَ الإحاليةَ لخدمة أغراضٍ حجاجيَّة؛ مثل: ترسيخ الموقف، أو إضعاف الحجة المقابلة[2]. ومن هنا فإنَّ الجمعَ بين لسانيات النص والتحليل التداولي ليس مجرّد مزاوجةٍ شكلية؛ بل هو ضرورةٌ علمية؛ لفهم النص التراثي فهمًا مُتكاملًا؛ فالروابط الإحاليَّةُ لا يمكن تفسيرها بمعزلٍ عن السياق المقامي، كما أنَّ البنية المقامية لا تكتمل قراءتها دون تحليلٍ دقيقٍ للأدوات التي تضمن الترابط النصي[3].

ولذا يُبرِز اعتماد "باب الهجاء" للدراسة، وتحليله وفق منهجٍ مُركب يجمع بين لسانياتِ النَّصِّ والتحليل التداولي إمكانية قراءة النص التراثي في ضوء أدواتٍ لسانيَّةٍ حديثة، دون إخلالٍ بخصوصيته التاريخية والثقافية؛ مما يُوفِّر مادةً غنيةً للتحليل، ويتيح في الوقت ذاته اختبار مدى قدرة المناهج اللسانية الحديثة على التعامل مع نصوصٍ ذات طبيعةٍ حجاجيَّة وجدليَّة، كما هو الحال في خطاب الجاحظ. ومن شأن هذه المقاربة المزدوجة أنْ تكشف عن عمق وعي المؤلف بأساليب الربط والتماسك النصي، وعن حسِّه البلاغي في

---

(١) التماسك في اللغة الإنجليزية، ص.٧٣.

(٢) ينظر: قضايا النحو في التراث العربي، ص.١٤٨.

(٣) المناهج النحوية: دراسة في أصول التفكير النحوي، ص.٢٠٥.

استثمار اللغة أداةً للتأثير والإقناع؛ مما يثري الدراسات العربية المعاصرة، ويُعمّق الصلة بين التراث والبحث اللساني الحديث.

المبحث الثاني: الروابط اللغوية في الخطاب الهجائي من رسائل الجاحظ

أورد الجاحظ في خطابه الهجائي أمثلةً كثيرةً من الروابط اللغوية، وهي:

أولًا: الروابط النحوية:

١- الربط بالضمير:

الضمير من أقوى أدوات الربط الإحالي التي تحفظ للنص تماسكَه، وتؤمّن انسجامه على المستويين: البنيوي، والدلالي. فهو لا يقتصر على الإشارة المرجعية؛ بل يتجاوز ذلك إلى بناءِ شبكةِ علاقاتٍ حجاجيَّةٍ وجماليَّة؛ تسهم في نقل الخطاب من المستوى التركيبي إلى المستوى التداولي[١]. وقد وعى الجاحظ – في *باب الهجاء* من رسائله – هذه الوظيفة، فبنى خطابَه على شبكةٍ من الإحالات الضميرية المتبادلة بين المتكلم والمخاطب والغائب؛ بحيث يتفاعل البُعد الحجاجي مع البُعد الجمالي في آنٍ واحد، فالضميرُ يؤدّي هذه الوظيفةَ بأقصى طاقته البلاغية؛ إذ تتحوّل الإحالةُ الضميرية إلى أداةِ ضغطٍ نفسيٍّ وسُخريةٍ لاذعة، وإلى وسيلةٍ لتصعيد الموقف الجدلي داخل النص الحواري[٢]؛ لذا فالجاحظ يُقدّم مشهدًا حواريًّا هجائيًّا نابضًا بالحيوية، يتداخل فيه ضميرُ المخاطب مع ضمير الغائب، ويتسلل بينهما صوتُ المتكلم بوصفه شاهدًا ومؤطّرًا للموقف؛ يتضح ذلك من خلال النُّصوصِ التالية، ففي قوله:

---

(١) في بناء النص، ص.٥٤.

(٢) في بناء النص، ص.٨٧.

"*فلتُ لمعاذ بن سعيد أدخلْتَ عليه؟ قال: نعم، قلْتُ كيف رأيت؟ قال: لا يعود إليه حُرٌّ*" [1] نجد الإحالة حاضرةً كوسيلة أولية للربط[2]، ثم يتبعها بالضمير *الهاء* في (عليه، إليه)، وكلاهما يعود على الشخص المذموم ذاته، في إحالة داخليةٍ تؤدي وظيفة الربط بين الجمل، وتربط أجزاء الخطاب ربطًا محكمًا. وفي قوله: "*وعْده الظفر، ومناه السلامة، ولقنه الاحتجاج بالباطل، وزين له قول الزور، ونظم له خلال الشر*" [3]، تتجلّى الهاء للمفرد المذكر الغائب رابطًا محوريًّا بين الجمل؛ إذ تعود على مرجعٍ واحد، وتضمن للنص انسجامَه الدلالي.

والبابُ كلُّه يتّسم بثراء في الروابط الإحالية، الداخلية منها والخارجية، مع تداخل الأبعاد النحوية والدلالية. ففي قوله: "*ومن عِظم كِبره اشتد عجبه، ومن أُعجب برأيه لم يشاور كفئًا، ولم يؤامر نصحًا*" [4]، نجد الإحالة الداخلية متمثلةً في الضمير العائد على الشخص المذموم، وهو ما يجعل النَّصَّ وحدة متماسكة لا مجرد تراكيب منفصلة[5].

---

(١) الرسائل الأدبية، ص.٣٣.

(٢) ينظر: نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص.١١٧.

(٣) الرسائل الأدبية، ص.٣٤.

(٤) الرسائل الأدبية، ص.٣٤.

(٥) ينظر: الربط النصي في العربية، ص.٢١٤.

فهنا تتكرَّر الهاءُ للغائب، عائدة إلى الشـــخص ذاته، محدثة خيطًا رابطًا بين الجُمل؛ بما يحافظ على وحدة المرجع، ويجعل الانتقال من جملةٍ إلى أخرى سلسًا ومتجانسًا[١].

وفي نصٍّ آخر له: "*فهذه وصيته، والعتبي والمروزي خيرته، وتلك سنته وطريقته*"[٢]، وهو نَصٌّ يُبرز الاستخدام الكثيف للضمير الغائب (الهاء) رابطًا بين الجمل؛ كما في (وصيته، خيرته، سنته، طريقته)، على نحوٍ يُحقق الإحالة المرجعية التي تحفظ وحدة المعنى عبر تتابع الجمل[٣]. فهو ربطٌ يتجاوز الوظيفة النحوية إلى البُعد الدلالي؛ إذ تتآزر الضـــمائر مع الترادف المعنوي؛ لتكوين شبكة إحالية متماسكة.

ويتوافق الدارســون على أنّ الضــمائر، تُمثِّل أداةَ ربطٍ أســاســية في الخطاب، لما تتيحه من إمكانات الإحالة وتثبيت المرجع، وتُعدّ من أكثر الوسائل انتشارًا في النُّصوصِ الأدبيَّةِ واللغويَّة؛ نظرًا لقدرتها على حفظ تماسك النَّصِّ دون إثقاله بالتكرار اللفظي، وهو ما تجلَّى بوضوحٍ في أسلوب الجاحظ؛ حيثُ جاءت الضمائرُ متسقةً مع السياق، محققة غاية الإيجاز والإحكام[٤].

وفي قوله: (قال محمدٌ المكي: "قلت له مرةً: جُعلْتُ فداك! لعلَّ إخوانَك أنْ يجلسوا عندك فوق مقدار شهوتك؛ فإنْ أقمتهم استحييتهم، وإنْ تركتهم ثَقُل عليك مكانهم. وما زالت الملوكُ تجعل لهذا أمارةً، وتنصـــب له

---

[١] ينظر: نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص.١١٧.

[٢] الرسائل الأدبية، ص.٣٤.

[٣] التماسك في اللغة الإنجليزية، ص.٧٦.

[٤] ينظر: نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص.١١٧.

علامةً، وقد قيل هذا لمعاوية بن أبي سفيان، فقال: آيةُ ذلك أنْ أُلقي الخيزرانة من يدي. وقال يزيدُ بن معاوية: آية ذلك أنْ أستلقيَ على فراشي. وقال عبدالملك بن مروان: آية ذلك أنْ أقولَ: بركة إذا شئتم. وقال سليمانُ بن عبدالملك: آية ذلك أنْ أقولَ: على الله. فاجعل لك آيةً تنتهي إليها، وأمارةً لا نجاوزها. قال: آيةُ ذلك أنْ أقولَ: يا غلامُ، الغداء) [1]. وفي قوله: "بئس الشيء الصديق: إنْ أعطيتَه أفقرَك، وإنْ منعتَه وجدَ عليك، ومتى وجد عليك ظلمًا أغضبك، ومتى أغضبَك أوحشك، ومتى أوحشك استوحشَ منك"[2].

ثلاثة محاور ضميرية: ضميرِ المخاطب بوصفه محور المواجهة والتأثير المباشر وتكثيف التوتر الحواري، وضمير الغائب وهو وسيلةٌ لتوسيع المشهد وربط المخاطب بسياقات أخرى، وضمير المتكلم وهو إطارٌ سرديٌّ يضبط تدفق الخطاب ويوفر بُعدًا توثيقيًّا.

هذه الضمائر لا تعمل متجاورة؛ بل في شبكةٍ متشابكةٍ تخلق إيقاعًا تداوليًّا يضمن استمرار التوتر الهجائي وتدفق الحجة[3].

ونلاحظُ أنَّ ضمير المخاطب هو الأكثرُ كثافةً في النَّصينِ؛ بل يمكن القول إنَّه العصبُ الحجاجيُّ في البناء؛ إذ هو القوة الضاغطة التي تستهدف المتلقي مباشرة، سواء أكان حاضرًا في الواقع أو مُفترضًا في بنية النَّصِّ، ففي النَّصِّ الأول تتكرر صِيَغُه في "شهوتك"، "أقمتهم"، "تركتهم"، "لك"، "لا

---

[1] الرسائل الأدبية، ص.٣٩.

[2] الرسائل الأدبية، ص.٤٠.

[3] في بناء النص، ص.٩٣.

نجاوزها" بينما نجد في النَّصِّ الثاني نجده يتّجه للخطاب "أفقرك"، "وجد عليك"، "أغضبك"، "أوحشك"، "استوحش منك". وهذا التَّكرار يُحقق ما أشار إليه عبدُ القاهر من أنَّ تكرير الضمير على المخاطب يُعمّق حضور المعنى في ذهن المتلقي، ويُبقيه في حالةٍ يقظةٍ ذهنيَّةٍ متصلةٍ[١]، وهذا النَّمط يندرج تحت ما يُسمَّى بالإحالة المرجعية المباشرة[٢]، وهي إحالةٌ تتوجّه إلى المخاطب وجهًا لوجه؛ مِمَّا يُعزِّز الطابع الجدلي.

أما ضميرُ الغائب هنا فيعمل بوظيفةٍ مزدوجةٍ، فهو أوَّلًا يكسر حدة المواجهة المباشرة بين المتكلم والمخاطب، ثم يُوسِّع المشهد ليشمل أطرافًا أخرى، ففي النَّصِّ الأول نراه في "إخوانك"، "استحييتهم"، "ثقل"؛ حيثُ تُربط حالة المخاطب بمجموعةٍ اجتماعيَّةٍ أوسع (إخوانه، ضيوفه، الملوك السابقون). وفي النَّصِّ الثاني يظهر في "أعطيته"، "منعته"، في إحالةٍ إلى طرفٍ ثالث يدخل المعادلة الهجائية.

وهذا الاستخدامُ يُحقق التعدد الصوتي؛ حيث يُصبح النَّصُّ ساحةً لتفاعل أصوات متعددة، بعضها مباشر (المخاطب)، وبعضها غير مباشر (الغائب)؛ مما يخلق مقارنةً ضمنيَّةً بين المخاطب والآخرين[٣].

أما ضمير المتكلم فيقتصر حضوره في النَّصِّ الأول في عبارةٍ واحدةٍ وبوضوحٍ في "قلت له"، وهي صيغةٌ تجعل الرَّاوي مُشاركًا مُباشرًا في الحَدَث،

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز، ص.٢١١.

(٢) ينظر: التماسك في اللغة الإنجليزية، ص.٧٦.

(٣) ينظر: .The Dialogic Imagination .P.293

وتمنح النَّصَّ بُعداً من المصداقية السردية، أو ما يُسميه النُّقاد "الإطار التضميني".

أما غيابه في النَّصِّ الثاني فليس نَقْصًا؛ بل هو اختيارٌ بلاغيٌّ يرفع النَّصَّ إلى مستوى المثل الأخلاقي العام، الذي لا يحتاج إلى إسنادٍ شخصي(١).

وهنا نلاحظ النَّصَّ يُوزِّع الضمائرَ بطريقةٍ تُحافظ على التوازن الإيقاعي، فيبدأ بالمخاطب؛ لشد الانتباه، ثم ينتقل إلى الغائب لتوسيع المشهد، ثم يعود إلى المتكلم لإحكام السرد. هذا التناوب يُحقِّق الانسجامَ النَّصيَّ الذي يتجاوز التماسك الشكلي إلى وحدةٍ دلاليَّةٍ شاملة(٢).

ولذا، فالضمائر في النَّصينِ تُنتج أثرًا مُركبًّا: المخاطب يُولِّد شعورًا بالضغط وتورطًا مباشرًا في الموقف، والغائب يُضفي بُعدًا اجتماعيًّا، ويخلق مقارناتٍ ضمنيَّةً، ويمنح النَّصَّ أفقًا أوسع. أما المتكلمُ يمنحُ مصداقيَّةً، ويُضفي الطابع التوثيقي، فالضمائرُ عنده ليستْ حياديَّةً؛ بل استراتيجيات حجاجية؛ المخاطب لإلزام الخصم، والغائب لتقديم الشواهد والمقارنات، والمتكلم لتثبيت الحجة في إطار السرد الشخصي. وهذا التوزيع ينسجم مع ما ذهب إليه عبدُالقاهر من أنَّ البلاغةَ ليستْ في اللفظ المفرد؛ بل في نظم العلاقات بين الألفاظ في السياق(٣)، وهذا المزجُ هو أحد أسرار أسلوب الجاحظ الذي يجمع

(١) ينظر: في بناء النص، ص.٨٧.

(٢) ينظر: التماسك في اللغة الإنجليزية، ص.٩٢.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز، ص.٥٥.

بين السخرية والجدّ؛ إذ يُوظّف الضمير بوصفه أداة إحالية حجاجية وجمالية في آن، فيدمج بين المباشرة والالتفات والتوسعة، في نصٍّ هجائي متكامل، متماسك البناء.

الجدول التالي يُوضّح ورود الضمائر بأنواعها في النصوص المختارة:

نوع الضمير	أمثلة من النص	مرات الورود	الوظيفة النصية	الوظيفة البلاغية / التداولية
الغائب	عليه، إليه، له، وصيته، خيرته، سنته، طريقته، كبره، عجبه، إخوانك (الهاء)، استحييتهم، ثقل، أعطيته، منعته	15	يربط بين الجمل، ويوحد المرجع في النص، ويمنع التكرار اللفظي.	-يخفّف حدة المواجهة المباشرة. -يوسّع المشهد؛ ليشمل أطرافًا أخرى. - يخلق مقارنة ضمنية بين المخاطب والآخرين؛ مما يعزز السخرية والتهكّم.
المخاطب	شهوتك، أقمتهم، تركتهم، لك، لا نجاوزها، أفقرك، وجد عليك، أغضبك، أوحشك، استوحش منك	10	يوجّه الخطاب مباشرة للخصم أو المتلقي، ويربط بين الأفعال والحالة الجدلية.	-يحقق الضغط النفسي والتأثير المباشر . -يضع المخاطب في موقع المواجهة الحجاجية . -يثير التوتر الحواري، ويخلق إيقاعًا هجائيًا حيًا.

نوع الضمير	أمثلة من النص	مرات الورود	الوظيفة النصية	الوظيفة البلاغية / التداولية
المتكلم	قلت له، قلت لمعاذ.	2	يقدّم الراوي نفسه طرفًا في النص، ويمدّ الخطاب بإطار سردي.	-يمنح النص مصداقية من خلال الشهادة المباشرة . -يمثل إطاراً تضمينياً يوثق الموقف . -يحقق الانتقال السلس من السرد إلى الحوار.

٢-الربط بالعطف:

العطفُ في العربية ليس مجرد علاقةٍ تركيبيَّةٍ بين مفرداتٍ أو جُمل؛ إنَّه آليةُ سبكٍ تحفظ للنَّصِّ تماسكَه وتُغذِّي انسجامَه، فالواو لمطلق الجمع، والفاء للتعقيب والسببية والنتيجة، وثمّ للتراخي الزمني أو الرتبي، وأو للترديد والتقسيم والاحتمال، وبل ولكن للإضراب والاستدراك، و"لا" العاطفة للنفي التراكمي؛ وكلُّها أدواتٌ تَتحوَّل عند الجاحظ إلى مفاصلَ إيقاعيةٍ ومفاتيحَ حجاجية، تُكثِّف أثرَ السخرية وتشدّ قارئها إلى بؤرة الهجاء. بهذا المعنى، يلتقي المفهوم العربي التراثي للعطف بوظيفته النَّصيَّةِ الحديثة للربط المرجعي والإجرائي بين المقاطع، وإدارة الانتقال بين الأصوات داخل المشهد، فدومًا الأداةُ النَّحويةُ لا تقف عند أبواب الإعراب؛ بل تَتوغَّل في بناء النَّصِّ ووظائف القول.

إنَّ العطفَ في نصوص الجاحظ يتجاوز وظيفته النَّحويَّة التقليدية ليُصبحَ أداةً من أدوات الاتساق النَّصي، ومن العواطف التي استعملها:

أ. **الواو**: فكثرة استعماله إياها – خاصةً – تُمثِّل خيطًا دلاليًّا يربط الجمل بعضها ببعض، ويجعل القارئ يسير في النَّصِّ بانسياب، كقوله:" *وجاره ذليل، وناصره مخذول، وجليسه مقموع، وغريمه ممنوع*" [1] هنا تُصبح الواو وسيلةً لجمع صفات المذموم في نَسَقٍ واحد يُضاعف من حدّة التهكم، ويوفِّر نوعًا من الإيقاع المتراكم الذي يشدّ المتلقي.

وعندما ننظر للنَّصِّ القائم على حوار محمد المكي مع رجلٍ وجيهٍ يُفتّش عن آيةٍ يُنهي بها المجلس، نلاحظ أنَّ البناءَ يسير هكذا: "إنْ أقمتهم استحييتهم، وإنْ تركتهم ثَقُل عليك مكانهم، وما زالت الملوك تجعل لهذا أمارةً، وتَنصِب له علامةً. وقد قيل هذا لمعاوية... وقال يزيد... وقال عبدالملك... وقال سليمان..." فنشاهد الواو التراكمية تتوالى في: *وما زالت الملوك... وتنصب...*، ثم "وقال... وقال... وقال..." لتشيّد سلسلة استشهادية تُقوّي الحجّة بمراكمة الأمثلة. وظيفة هذه الواو ليست مجرّد جمعٍ لفظيّ؛ بل تمضي بالقارئ بين مقامات الخلفاء في سرعةٍ محسوبةٍ تُشبه تقليب بطاقاتٍ في أرشيف؛ كل بطاقة تُسجِّل آيةً لإنهاء المجلس. هذا التكديس بالعطف يمنح الخطاب إيقاعًا عدديًّا وذاكرةً سهلة الاسترجاع.

---

[1] الرسائل الأدبية، ص.٣٢.

ونجدها – أيضًا – تراكم أعراضًا أخرى في قوله: "أسلمته الحال إلى القسوة، واستفرغته الغفلة، واستولى عليه سلطان الطبع، وكثّف على قلبه حجاب الرين"[١].

فهنا أربعةُ أفعالٍ متعاطفة (أسلمته – استفرغته – استولى– كثّف) تصنعُ متتالية علائم تُحاصر الموصوف من الجهات الأربع: الحال – الغفلة – الطبع – الرين. فالواو هنا يشبه العدّاد الوصفي يُشعر بثقل التراكم. ونجد التوازن الصوتي بالتكرار الصوتي لكاف المخاطب مع الكلمات: *أفقرك– عليك– أغضبك– أوحشك– منك*" مع "الواو" المنتظمة يُنتج إيقاعًا تذكّريًّا، فالعطف هنا إيقاعٌ ووصمٌ معًا، يُذكِّر ويُشهِّر.

بل الواو تفيد المقابلة مع "إنّ" الحاصرة، كما في قوله: "*ينبو عنه السيف وإن كان صارمًا، وتقف عنه الحجّة وإن كانت قاطعة*"[٢] فالواو تقرن عبارتين متماثلتين تركيبيًّا، وتضيف مفارقةً حجاجية، فالسيفُ الصارم والحجّة القاطعة يتعثّران به؛ إنَّه تعجيزٌ كليٌّ تنسجه الواو على سلكين متوازيين.

ونجد الواو تُرتّب سلّم النتائج، تكرار الواو في قوله: "وإن منعته وجد عليك، ومتى وجد عليك ظلمًا أغضبك، ومتى أغضبك أوحشك، ومتى أوحشك استوحش منك"[٣] يدير عجلة السببية في تتابعٍ منطقي: العطاء ← الفقر؛ المنع ← السخط؛ الظلم ← الغضب، ← الوحشة المتبادلة.

---

[١] الرسائل الأدبية، ص.٣٨.

[٢] الرسائل الأدبية، ص.٤٠.

[٣] الرسائل الأدبية، ص.٣٣.

هنا تتولّى الواو وظيفةَ الربط الحجّاجي ليســـت لمطلق الجمع؛ بل لتصـــعيد سلسلة المعلول.

أيضًـــا نجد الواو و"لا" العاطفة، حيث تتوالى "ولا" على نمط" ولا تمنّى له خيرًا؛ ولا اشتاق إلى صديق، ولا استوحش إلى أنيس"، وهذه عاطفةٌ نافية تُراكم سلسلة الحرمان القيمي، فهي ليست نحويةً مفردةً فحسب؛ إنّها وِحدة إيقاعيَّةٌ تُضفي ختمًا سلبيًّا على كُلِّ قيمة (حبّ- تمنٍّ- اشتياق- استيحاش- توكل- فزع...).

ونجد الواو لترصـــيع الصـــفات في قوله: "*في أنفه خنزوانة*، وفي *رأســـه نعرة*" [1] فإعادة الجارّ والمجرور مع الواو تُنشـــئ تناظرًا تصـــويريًّا بين "خنزوانة" و"نعرة"، ثمّ نجد "ومن... ومن... ولم... ولم" سـقالاتٍ عطفية تُتمّم إغلاق المشهد.

ونجد واو الحال الاســـتئنافية في: "وويل لمن أثنى عليه خيرًا، وقدّر لديه عرفاً! وويلٌ لمن ترك الردّ عليه، ولم يرفع ذلك إليه"[2] تجمع فعلَ القول وفعل التقدير؛ هجاءٌ يُصيب اللسان والنيّة معًا، وحصيلة العطف هنا شبكة حرمان قيمي يغدو معها «الصديق» ضدّ كلّ فضيلةٍ في المعجم الاجتماعي.

فالواو الاســتئنافية هنا تســرد: "وقال... وقال" محافظةً على خط الزمن التفسيري دون تراخٍ. فغياب "ثمّ" يُشيع إحساس العجلة؛ إذ الهجاءُ يريد إنهاءً سريعًا للمجلس، فيحاكي بالعطف القرار السريع.

---

[1] الرسائل الأدبية، ص.٤٠.

[2] الرسائل الأدبية، ص.٣٦.

ولو استطردنا في النصوص لوجدنا في قوله: "*بما يشفي الصدر فيه ويثلجه، ويبين عند الغدر فيه ويكشفه*" [1] جمالًا دلاليًّا؛ إذ جعل الواو عمدة الربط هنا، فنسج بها بين أطراف الكلام نسجًا مُحكمًا، فعطف "*يثلجه*" على ما سبقه "*بما يشفي الصدر*"، ثم عطف "*يكشفه*" على "*ويبين عند الغدر*" فالواو هنا ليستْ مجرد أداة ربط؛ بل هي مفتاح المعنى الذي يُدخل الجملة في نسيج النص؛ إذ تفتح أفقًا دلاليًّا، يوحي بالتكامل بين أجزاء العبارة وتراكب صورها[2].

وقد أضاف الجاحظُ إلى ذلك توظيف "أل" العهدية في: "*الصدر*" و"الغدر"، فاستقرَّت الدلالة على تخصيص المقصود دون غيره؛ مِمَّا زاد التماسك وأغنى الصورة. ومن ثمّ فإنَّ اختيار الواو لم يكن عفويًّا؛ بل هو وعي بكونها الأصل في باب العطف، والأداة الأقدر على جمع الأشتات وربط المعاني بعضها ببعض، وهو ما جعل النحاة واللسانيين يعدّون العطف أبرز صور التماسك النصي[3].

ومن شواهد ذلك – أيضًا – قوله: "*يعق أباه، ويحسد أخاه، العجب شقيقه، والبذخ صديقه، والنفج أليفه، والصلف عقيده*" [4]، وقوله: "ولكن استفرغ اللؤم وتعرقه، وبلغ غايته واستوعبه، وكيف ولم

---

[1] الرسائل الأدبية، ص.٣٣.

[2] ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص.١١٤.

[3] ينظر: التماسك في اللغة الإنجليزية، ص.٢٢٦.

[4] الرسائل الأدبية، ص.٣٢.

يسمع بملحة قط ولا فهمها، ولا ابتسم من نادرة قط ولا علقها"[١]. فقد اتفق علماءُ نحو النَّصِّ أنَّ العطف أحد أهم أنواع الرابط إنْ لم يكن أهمها، وأهم أنواع حروف العطف التي تؤدي وظيفة الربط هي الواو[٢]. وقد وجدنا الجاحظ بالِغ الكثافة لتوظيف الواو؛ حيث تتابعت حتى غدتْ كأنها خيوط نول نسجت صورة هجائية كاملة الملامح، فقد وظف الواو أداةً للعطف والربط، فربط بين الجمل السابقة كلها؛ لتدلّ على أنها جميعها تشترك في كونها صفات هذا الشخص المذموم، فربط بينها جميعًا بالواو؛ للدلالة على اشتراك تلك الصفات واجتماعها في شخصٍ واحد[٣].

والواو هنا لم تقتصر على الوصل[٤]، وإنَّما أدّتْ دورًا إيقاعيًّا وتراكميًّا؛ فهي تجمع بين الصفات لتدلّ على أنها جميعًا تنعقد في شخص واحد، فكأنَّ القارئ أمام مِرآةٍ متكسّرة تُعيد الوجه في صور متراكبة، لا يملك معها إلا أنْ يدرك أنَّ المذموم قد استغرقته النقائص كلها. والحق أن هذا التراكم المعنوي لم يكن ليكتمل لولا الواو، التي أتاح تكرارها إيقاعًا متدافعًا، يوازي تدافع الصفات في دلالتها الهجائية[٥].

---

(١) الرسائل الأدبية، ص.٣٦.

(٢) ينظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص.٢٣.

(٣) ينظر: نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص.١٢٨.

(٤) ينظر: الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب، ص.٣١.

(٥) ينظر: قضايا النحو في التراث العربي، ص.٧٥.

وفي قوله: "ولكن استفرغ اللؤم وتعرقه، وبلغ غايته واستوعبه، وكيف ولم يسمع بملحة قط ولا فهمها، ولا ابتسم من نادرة قط ولا علقها" [1] وهنا يزداد وضوح الدور الذي تنهض به الواو؛ إذ لم تُستعمل كفاصلٍ بين الجمل؛ بل جسرًا معنويًّا يضمن أنْ تصدُر جميع الأفعال عن ذات واحدة. فهي تدل على الاشتراك في الفعل والدلالة، حتى يتشكل من النص مشهد مكثّف يفيض بالصور التي تؤكد انغماس المذموم في اللؤم والبلادة. ولئن كان النحاة يرون الواو أدق أدوات العطف دلالة على المشاركة، فإنَّ الجاحظ قد أحسن تطويعها حتى غدتْ أداةَ تلاحمٍ نصيٍّ لا يُتصور الكلام من دونها[2] فهي تحافظ على الإيقاع، وتضمن وحدة التصوير، وتمنح النَّصَّ طاقة بلاغية تستعصي على التفكك[3].

وعليه، نخلص إلى أنَّ الواو تصنع الأرشفة، والفاء تُصدر المُوجِّه، وتكرار العطف يثبت المِعيار، كل خليفة له علامة واضحة لإنهاء مجلسه. هذا الجمع بين السلّم العطفي والتدرّج التداولي يجعل النصوص المختارة درسًا في توظيف العطف بوصفه تصميمًا للمشهد لا وصلًا بين جُملٍ فحسب.

والواو في كل هذه التراكيب ليست مجرد حرف عطف؛ إنَّها أداةُ ربطٍ نصيٍّ تؤسس إيقاعًا تراكميًّا يشي بكثرة المثالب، وتعدد وجوه اللؤم، بحيث يبدو المهجو محاطًا بالمعايب من كل جانب.

---

(١) الرسائل الأدبية، ص.٣٢.

(٢) ينظر: المناهج النحوية: دراسة في أصول التفكير النحوي، ص.١٣٣.

(٣) ينظر: الترابط النصي في البلاغة العربية، ص.٢٠١.

ب. الفاء، كالإجرائية التي تظهر في: "*فاجعل لك آية*"، وهي فاء نتيجة وتعقيب، تنقلنا من تراكم الشواهد إلى أمرٍ إجرائيّ موجّهٍ للمخاطب. هنا يتحوّل العطف إلى فعل تداولي بعد الواو التي راكمت الأمثلة، تأتي الفاء لتدفع المخاطَب إلى قرارٍ عمليّ.

ومثلها الفاء السببيّة في قوله: "فلم يبق في عقله فضلٌ للاستماع" حيث تلتقط نتيجة شاملة للتراكم السابق، فالمنظومة الوصفية تؤول إلى تعطيل القوى؛ العقل والاستطاعة. وبهذا يتولّى العطف بها بناء معادلة السبب والنتيجة.

وعندما ننعم النظر في قوله: "قد تمكّن منه الشيطان، فهوّن عليه سخط الربّ، وسهّل عليه عقاب الأبد، ووعده الظفر، ومَنّاه السلامة، ولقّنه الاحتجاج بالباطل، وزيّن له قول الزور، ونظّم له خلال الشر"[1] نجد سلسلةً بُنيت على الفاء السببيّة المحوريّة التي تربط سببًا واحدًا (التمكّن الشيطاني) بمروحة نتائج تتدرّج من التزيين إلى التنظيم؛ ومن الوعد إلى التمنية. إنَّها مشهد إفساد متعاقب تمسكه الفاء من رأسه.

ج. من أدوات الربط النحوية في النص "أو"؛ حيث أفادت التقسيم، والتخيير، والاحتمال، ففي قوله: "ويلٌ لمن ظنّ أنّه يرجوه، أو يطمع فيه... وويل لمن عاد إلى تأميله، أو طمع في ماله"، فـ"*يرجوه، أو يطمع فيه، عاد إلى تأميله، أو طمع في ماله*" "أو" هنا ليستْ للشكّ والتردد؛ بل لتوسيع مظانّ الإدانة، أيّ طريقٍ دخلت منه إلى هذا "الصديق"

---

[1] الرسائل الأدبية، ص.٣٩.

انتهيت إلى الخيبة. فـــ"أو" تُحسن رسم التخيير: الرجاء والطمع؛ العودة للتأميل والطمع في المال. فأيّ بابٍ دخلته دخلتَ الإثم.

د. **"لا" المفيدة النفي التتابعي**: تتوالى "لا" في النصـــوص التالية: "لم يتوكّل قطّ إلّا على حيلتـه، ولا فزع إلّا إلى رأيـه، ولا عرف الاســـتخـارة والاسـتشـارة... ولا يعرف التوفيق، ولا يثق بالتوكّل" وقوله: "فلم يبقَ في عقله فضـلٌ للاسـتماع، ولا في اسـتطاعته بقيّةٌ للتصـرّف"، وقوله: "ولا يعرف التقيّة ولا المروءة" لتبني خرائط العُقم في القيم، فلا حبّ، لا تمنّي، لا توكّل، لا فزع إلى الله، لا توفيق، لا ثقة بالله، لا مروءة. العطف بـ"لا" ينسج حاشيةً سوداء حول شخصية المهجوّ.

هـ. **"ثمّ"**: مع أنَّها أدقُّ في التراخي الزمني، فقد آثر الجاحظُ الواو والفاء؛ فكأنَّ البلاغةَ الهجائية تكره التراخي، فالتوبيخ لا يحتمل التراخي، والصـــديق المذموم يفضـــي إلى الشـــرّ بلا إبطاء، فغير "ثم" يدعم البنية العطفية بأثر القسوة، وهذا خيار أسلوبي ينسجم مع مقصد الهجاء الفضحِ العاجل.

بهذا يتبيّن أنَّ العطفَ بكل أدواته عند الجاحظ ليس زينةً تركيبيَّةً؛ بل هندسـة خطاب، يوزّع الزمن والحجّة والانفعال، ويعطي للهجاء شكله الحي، ســـريعًا حين يلزم (فاء)، متراكمًا حين يُراد التثقيل (واو)، مُحاصـــرًا حين يلزم الإدانة الشـاملة (لا العاطفة)، ومقسِّـمًا حين يقتضـي الحجاج رسـم البدائل (أو). ومثل هـذا الوعي ببنـاء النص يجعل الخطـاب الهجـائي عنـد الجـاحظ مشاهد مُحكمة النسق، لا جُملًا متناثرة.

والجدول التالي يبيّن أدوات العطف في النصوص المختارة:

الأداة	مواضع/شواهد نموذجية من النص	مرات الورود (تقريبًا)	الوظيفة البلاغية/التداولية	الوظيفة النحوية
الواو	"وجاره ذليل، وناصره مخذول، وجليسه مقموع، وغريمه ممنوع" / "وما زالت الملوك... وتنصب... وقد قيل... وقال... وقال..."/ "واستفرغته... واستولى... وكثّف..."/ "وإن منعته... ومتى... ومتى..."/ "وويل... وقدّر... ولم..."/ "...ويثلجه، ويبين... ويكشفه"/ "ويحسد... والبذخ... والنفج... والصلف..."/ "...وبلغ... وكيف... ولم..."	28	تراكم الصفات/الأفعال، تسريع الإيقاع، بناء "أرشيف" حججي متتابع، إحاطة المهجوّ بالمثالب من كل جهة	مطلق الجمع والربط بين الجمل والصفات

الأداة	مواضع/شواهد نموذجية من النص	مرات الورود (تقريبًا)	الوظيفة البلاغية/التداولية	الوظيفة النحوية
الفاء	"فاجعل لك آية"/ **"**فلم يبق في عقله..."/ "قد تمكّن منه الشيطان، فهوّن عليه..."	3	نقل الخطاب من التكديس الوصفي إلى قرار عملي، وبناء سلسلة سبب ←--- نتيجة	تعقيب/نتيجة وسببية
ثمّ	"ثم ما ظنك بعرق السوء إذا تقادم..."	1	حضور نادر يبرز أن نسق الهجاء يميل للتصعيد السريع لا التراخي	تراخٍ زمني/رتبي
أو	"يرجوه، **أو** يطمع فيه... عاد إلى تأميله، **أو** طمع في ماله"	2	توسيع مظانّ الإدانة: أي طريق تسلكه ينتهي بالخيبة	تخيير/تقسيم
لا العاطفة	"ولا تمنّى له خيرًا؛ ولا اشتاق ...ولا استوحش"/"...ولا يعرف التوفيق، ولا يثق بالتوكّل" / "...ولا في استطاعته بقيّة..."/ "ولا يعرف التقيّة **ولا** المروءة"/"...ولا فهمها، ولا ابتسم ...**ولا** علقها"	13	صناعة هالةٍ سوداء حول المهجوّ عبر خرائط عُقم قيمي متتابعة	نفي تراكمي متعاطف

ومن خلال الجدول السابق نجد الواو عمود النسق؛ إذ تبني تراكمًا وصفيًّا وحجاجيًّا، يُحوِّل السرد إلى سجل وقائع، ويُبقي المتلقي في تيارٍ إيقاعيٍّ متلاحق، في حين أنَّ **الفاء** لاحقة للتراكم الذي نسجته الواو، فتشدّ الخطاب نحو نتيجة عملية أو حكم ملزِم، بينما تأتي "**ثمّ**" نادرة؛ إذ الهجاء يكره التراخي، و"**أو**" ترسم بدائل مغلقة تُفضي كلّها إلى الإدانة، وأما "**لا**" **العاطفة** فتراكِم النفي قيمةً بعد قيمة، وتحاصر الصورة الأخلاقية للمهجوّ بنسقٍ محكم.

٣-الربط الشرط: الجاحظ لم يوظّف أدوات الشرط لأداء المعنى المنطقي فحسب؛ وإنَّما جعل منها **آليات** ربطٍ نصي تعكس وعيه بمفهوم الانسجام، حتى لتبدو نصوصه نموذجًا مُبكرًا لما يسميه لسانيّو النص بالترابط الشرطي[١].

إنَّ الجاحظ في نصِّه الذي يرويه عن الحصين بن الحسين يُمثّل ذروة التلاحم بين فنّ السرد ووظائف الربط النصّي. فقد جاء قوله: *"إنَّ مما يؤنس من رجوعه، ويقنط من نزوعه، وأنَّ الله قد طبع على قلبه في اللؤم، وضرب على سمعه في البخل"* [٢] مشحونًا بالبناء الشرطي المركّب الذي يجعل من أداة الشرط محورًا لربط الجمل بعضها ببعض. فالجملة الشرطية *"إذا كان عاقلًا"* لم تُذكر على سبيل العرض العابر؛ بل صارتْ قيدًا منطقيًّا جامعًا عُلّقت عليه باقي الصفات. وهذا اللون من التعلّق الشرطي يؤكد ما أشار إليه النحاة والبلاغيون من أنَّ أدوات الشرط ليست مجرّد تراكيب نحوية؛ بل هي أدوات نصّية تمارس وظيفة الربط وتؤسس لتماسك البنية الخطابية.

---

[١] ينظر: نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص.١١٧.

[٢] الرسائل الأدبية، ص.٣٦.

ويزداد هذا المعنى وضوحًا في نصّه الآخر: *"ولو تمسك بسبب من الخير وإن ضعف، أو رغب في شيء من المعروف وإن قل، لأضربت عنه صحفًا، وطويت عنه كشحًا"* [1]. فالجاحظ هنا يجمع بين أداتي الشرط *(لو وإنْ)*؛ ليجعل من الشرط أساسًا للحكم، فـ*"لو"* تفيد الامتناع لامتناع، بينما *"إنْ"* تفيد التعليق على إمكان وقوع الفعل، وكلاهما يربط بين الجملة الشرطية والجواب في نسقٍ واحد، يحقق التماسك ويكشف عن قدرة الواو وسائر الروابط على بناءِ نصٍّ متماسك في مستوييه التركيبي والدلالي[2].

وفي قوله: "فإن أقمتهم... وإن تركتهم"، تكرار الواو قبل "إن" يُعطي موازنةً شرطية تُفصِّل وجهيْ الموقف الإبقاء والانسحاب. فالعطف هنا يُنتج مصفوفةً شرطيةً متوازية، يتساوق فيها المعنى على محورين متناظرين، فيتحقق توازن التوبيخ والنصح الذي يريده الجاحظ في هجائه الاجتماعي الرقيق.

وعندما ننعم النظر في نصٍّ آخر نجد نموذجًا حكميًا شديد التكثيف في حضور رابط الشرط: "بئس الشيء الصديق: إن أعطيته أفقرك، وإن منعته وجد عليك، ومتى وجد عليك ظلمًا أغضبك، ومتى أغضبك أوحشك، ومتى أوحشك استوحش منك".

بل حضر التضفير بين العطف والشرط، فنجد الجاحظ يعطف جُملًا شرطيةً متوازية (وإنْ منعته... ومتى... ومتى... ومتى...؛ هذا التوازي

---

[1] الرسائل الأدبية، ص.٣٧.

[2] ينظر: مغني اللبيب، ص.٣٣٧؛ ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص.٢٧٥.

العطفي يصنع سلمًا منطقيًّا يفضي إلى اليقين: لا مَخرج قانونيًّا للمهجوّ من شبكة القول.

وفي سياق آخر يبرز وعي الجاحظ ببنية الربط النصي؛ إذ اختار "إذا" أداةً جامعة بين دلالتي الظرف والشرط؛ فهي تربط الجمل على نحوٍ يشي بالاستقبال ويُشعر بالشرطية، فتصبح كل جملة مشروطة بسياقها الزمني والمفهومي، يقول: "*ثم ما ظنك بعرق السوء إذا تقادم، واللؤم إذا تمكن، والبخل إذا تفحل، والفحشاء إذا تمت*" [1] هذا التوظيف لا يُحقق مجرد تراكم وصفي؛ بل يدلي بنسقٍ دلاليّ متماسك، يربط بين السمات السلبية ويصوغها في إطار سببي- زمني واحد. ومن ثمّ فإنَّ «إذا» هنا تؤدي وظيفة نصية عليا، تجعل النَّصَّ وحدةً متلاحمةً يتآزر فيها التركيب مع المعنى[2].

تبرز النصوص السابقة أنَّ الجاحظ لم يكن يوظّف الروابط الشرطية للتزيين الأسلوبي فحسب؛ وإنَّما كان يستثمر طاقتها في توليد المعنى، وبناء النص على نحوٍ يضمن ترابط أجزائه، ويؤكد وحدة فكرته المركزية. وهذا ما يجعل الشرط عنده من أعظم أدوات الربط النصي وأكثرها تأثيرًا في توجيه المتلقي نحو الفهم الصحيح للمغزى، وهذا النَّمط يُمثّل ما يُسمَّى بـ"الترابط السببي"؛ حيثُ لا تُفهم الجملة إلا بعلاقتها بما قبلها[3].

---

(١) الرسائل الأدبية، ص.٣٥.

(٢) ينظر: نسيج النص، ص.١١٩.

(٣) ينظر: النص والخطاب والإجراء، ص.٦٧.

والجدول التالي به إحصائية تقريبية لأدوات الشرط التي استعملها الجاحظ في النصوص المدروسة:

الأداة	شواهد من النص	مرات الورود (تقريبًا)	الوظيفة البلاغية / التداولية	الوظيفة النحوية
إنْ	«إنّ مما يؤنس من رجوعه...» / «إن أقمتهم استحييتهم، وإن تركتهم ثقل...» / «إن أعطيته أفقرك، وإن منعته وجد عليك»	5	-تعليق الحكم على الشرط. - خلق موازنة بين وجهي الموقف (الإبقاء/الترك). - تقوية البنية الجدلية بالتوازي النصي.	أداة شرط جازمة للتعليق على وقوع الفعل
لو	»لو تمسك بسبب من الخير وإن ضعف«...	1	-إبراز المفارقة (استحالة تحقق الخير). - إنتاج صورة بلاغية تؤكد غلبة النقائص.	أداة شرط تفيد الامتناع لامتناع
إذا	"إذا كان عاقلاً..."/ "إذا تقادم... إذا تمكن... إذا تفحل... إذا تمت"	5	-يربط الصفات بتطورها الزمني. - يمنح النص بُعدًا سببيًا-زمانيًا. - يخلق اتساقًا بين التراكم الوصفي والزمن.	ظرف لما يُستقبل يتضمن معنى الشرط
متى	"متى وجد عليك ظلماً أغضبك، ومتى أغضبك	3	- رسم سلّم سببي متدرج	أداة شرط ظرفية زمانية

الأداة	شواهد من النص	مرات الورود (تقريبًا)	الوظيفة البلاغية / التداولية	الوظيفة النحوية
	أوحشك، ومتى أوحشك استوحش منك"		– إظهار حتمية النتائج وتتابعها المنطقي. – يضمن انسجام النص عبر تتابع الشرط والجواب.	

ثانياً: الربط بالإحالة:

يُظهِر الجاحظ براعة لافتة في توظيف أدوات الربط والإحالة بوصفها آليات أساسية في بناء نصوصه. فالهجاء عنده لا يقوم على القدح المباشر فحسب؛ بل يتكئ على شبكةٍ من الروابط اللغوية التي تمنح الخطاب تماسكًا داخليًّا وتفتح أمام المتلقي إمكانات متعددة للتأويل.

فنلاحظ في قوله: " استشهد العدول، وأهل المخيلة والعقول، على أني *لم أر له محتجًا، ولا عنه مكذبًا، ولا رأيت أحدًا يرحمه، أو يحفل به، أو يمسك عنه، أو يشفع فيه*" [1]، أنَّ الجاحظَ أَكْثَرَ من توظيف الضمائر المتصلة: (له، عنه، يرحمه، به، فيه). وهذه الضمائر، من حيث هي إحالة داخلية، تعود كلها على الشخص المذموم. إنَّ هذا التكرار الإحالي لا يؤدي وظيفةً إحاليَّةً فحسب؛ بل يمنح النَّصَّ إيقاعًا متماسكًا، ويُرسّخ في ذهن القارئ صورة

[1] الرسائل الأدبية، ص.٣٣.

شـخصـية محاطة بالازدراء من جميع الجهات. إنَّ الضـمير من أبرز وسـائل الاتساق النصي، وهو ما يبرزه الجاحظ عمليًّا في هذا السياق[١].

وفي موضعٍ آخر حين يقول: *"يضـرّ – والله – عنده ما ينفع الكرام، وينفع عنده ما يضـر الكرام"* ، نجد أنَّ تكرار اسـم الموصـول "ما" قد أتاح للجاحظ نسج مقابلة دقيقة بين المنفعة والضرر. ثم يضيف "أل" العهدية في "الكرام"؛ ليشـير إلى جماعةٍ معروفةٍ ذهنيًّا لدى كل قارئ. هذه الإحالة الموصـولة لا تُنتج اتسـاقًا فحسـب؛ بل تخلق طباقًا دلاليًّا بين النفع والضـرر، يضـاعف من حدة السـخرية. وهو ما وصـفه العواضـي[٢] بكونه إحالة ذات وظيفة دلالية مضاعفة.

وفي قولـه: "ولم يفهـم عـن الله شـيئًا قـط إلا ازدراه، ولا روى أثـرًا، ولا طلـب شـعرًا، ولا حفـظ خـبرًا، ولا قـرأ تنـزيلًا"[٣]، نجـده أحـالَ إحالـةً خارجيَّـةً في عـددٍ مـن الجمـل، فبـدأ بقولـه: "لم يفهـم عـن الله شـيئًا قـط إلا ازدراه"، وهـي إشـارة إلى عمـوم الـدين الـذي يوجـب احـترام الـنعم وعـدم ازدرائهـا، ثم أحـال إلى السُّـنة المطهـرة في قولـه: "ولا روى أثـرًا، ولا حفـظ خـبرًا"، ثم أحـال إلى القـرآن الكـريم في قولـه: *"فـوق العـذاب الأدنى، ودون العـذاب الأكـبر"* ؛ حيـث يحيـل إحالـةً مباشـرةً إلى الـنَّصِّ

---

[١] ينظر: نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص.١١٧.

[٢] ينظر: لسانيات النص: مدخل نظري وتطبيقي، ص.٧٧.

[٣] الرسائل الأدبية، ص.٣٧.

القـــــــــرآني: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[1].

هذه الإحالاتُ النَّصية الخارجية ليستْ مجرد استعارة بلاغية؛ بل هي إدخالٌ للنَّصِّ الديني في نسيجٍ هجائي، بما يضفي بُعدًا تداوليًّا مركبًّا؛ إذ يجمع بين سلطة النَّصِّ المقدس ووظيفة القدح الدنيوي. وهذا النوع من التناص يمنح الهجاء مشروعية دينية وأخلاقية[2].

وعندما ننعم النظر، نجد الجاحظ يورد قولَ الحارثي: "*لم أر لؤمًا قط إلا والدهر ينقص منه أو يزيد فيه، إلا لؤمه؛ فإنَّه قد تناهى في القوة، وبلغ أقصى النهاية*"، هنا يبرز لونٌ من الإحالة الذهنية؛ إذ يضع "اللؤم" في مقارنةٍ مع تجارب البشر المعتادة؛ ليؤكد تفرد الشخصية المذمومة في بلوغ أقصى حدود الرذيلة. هذا اللون من الإحالة يستند إلى الذاكرة الجمعية التي ترى الصفات في حال مدّ وجزر؛ إلا أنَّ "اللؤم" هنا قد استقر واستبد، فأضحى جوهرًا ملازمًا. ويعتبر هذا النمط من الإحالة وسيلة نصية لإعادة بناء القيم المشتركة عبر السخرية[3].

ومما يميز الجاحظ أنَّه لا يكتفي بأداةٍ واحدةٍ من أدوات الإحالة؛ بل يجمع بينها في نسيجٍ واحد: ضمير يعقبه موصول، واقتباس قرآني يتبعه تعبير ذهني، وكل ذلك في إطار هجائي متماسك[4]. ومن هنا يصبح النص عنده

---

(١) سورة السجدة: ٢١.

(٢) ينظر: تحليل الخطاب: دراسة في النص والنسق، ص.٩٢.

(٣) ينظر: تحليل الخطاب الشعري، ثنائية الاتساق والانسجام، ص.١٣٤.

(٤) ينظر: مهارات التعرف على الترابط في النص، ريما الجرف، ص.٨٢.

شبيهًا بـــشبكةٍ مترابطة، حيث تتضافر الروابط؛ لتمنح القول تماسكًا داخليًّا، ولتفتح في الوقت ذاته على أفق تداولي خارجي؛ حيث تتحقق وحدة النص عبر أدوات إحالية متنوعة[1]. وهذا المنهج يعكس ما يمكن تسميته بـــ"الهجاء النصي" الذي يجمع بين البلاغة القديمة وآليات لسانيات النص الحديثة[2].

والجدول التالي به إحصائية تقريبية للإحالات في المدونة المختارة:

نوع الرابط	الشواهد من النص	الوظيفة البلاغية / التداولية	الوظيفة النحوية	عدد الورود (تقريبًا)	الأداة/الوسيلة
الضمائر	"لم أر لـــه محتجًا، ولا عنه مـــكـــذبًا، ولا رأيـــت أحـــدًا يرحمه، أو يحفل به، أو يمســـك عنه، أو يشـفع فيه"	-توكيد وحدة المرجع. - تكوين صورة محاصرة بالذم من كل الجهات. - إيقـاع تراكمي يزيـد من الضغط النفسي.	إحـــالـــة داخليـة إلى مرجع واحد (الشـخص المذموم)	6	الضـــمـــائـر المتصـــلـة (له، عنـه، يرحمـه، به، فيه)
الموصولات	"ما ينفع الكرام... ما يضر الكرام"	-خلق مقابلة بين النفع والضرر. - تكوين طباق دلالي يزيد السخرية.	أداة ربط بين الجملة وصلتها	2	اسم الموصول (ما)

(1) ينظر: التماسك في اللغة الإنجليزية، ص.٧٦.

(2) ينظر: لسانيات النص: مدخل نظري وتطبيقي، ص.٨١.

نوع الرابط	الشواهد من النص	الوظيفة البلاغية / التداولية	الوظيفة النحوية	عدد الورود (تقريبًا)	الأداة/الوسيلة
أل العهدية	"ما ينفع الكرام ...ما يضر الكرام"	-إحالة إلى صورة ذهنية مشتركة عند القارئ. - تضخيم المفارقة بين المذموم وبين أهل الفضل.	تخصيص الجماعة المعهودة ذهنيًا	2	الكرام
الإحالة الخارجية	"لم يفهم عن الله شيئًا... ولا روى أثرًا... ولا حفظ خبرًا... ولا قرأ تنزيلاً... فوق العذاب الأدنى ودون العذاب الأكبر"	-توظيف النص المقدس في خطاب هجائي. - إضفاء مشروعية دينية على القدح. - تعزيز البعد التداولي للنص.	إحالة إلى القرآن والسنّة	5	نصوص دينية (الله، أثر، خبر، تنزيل، العذاب الأدنى، العذاب الأكبر)
الإحالة الذهنية	"لم أر لؤمًا قط إلا والدهر ينقص منه أو يزيد فيه، إلا لؤمه..."	-إعادة بناء القيم المشتركة (اللؤم استثناء دائم).	إحالة على تجارب جمعية	3–4	المفاهيم المجردة (اللؤم، الدهر، القوة، النهاية)

نوع الرابط	الشواهد من النص	الوظيفة البلاغية / التداولية	الوظيفة النحوية	عدد الورود (تقريبًا)	الأداة/الوسيلة
		- استدعاء الذاكرة الجمعية في المفاضلة بين الصفات.			
التناص	النص كله (له... ما... الكرام... عن الله... أثر... تنزيل... اللؤم...)	-نسج شبكة إحالية معقدة. - تحويل النص إلى بناء مترابط داخليًا وخارجيًا. - ابتكار ما يشبه "الهجاء النصي."	جمع بين وسائط إحالية متنوعة	متداخل	الجمع بين ضمير + موصول + اقتباس + إحالة ذهنية

ثالثًا: الروابط التداولية:

لقد عمد الجاحظ في خطابه الهجائي إلى توظيف الروابط التداولية، ومنها الاستفهام، ففي قوله: *"وما ظنكم بمن يمسي في غضب الله تعالى وسخطه، ويصبح في خذلان الله وتخليته من يده! وما ظنكم بمتكلم لا يعرف قوله، ولا يقضي على مذهبه"* [1] يستعمل أداة تداولية بالغة الكثافة؛ إذ يتجاوز حدود الاستفهام النحوي المحض إلى أفق بلاغي وحجاجي يجعل منه رابطًا نصيًّا ودلاليًّا في الوقت ذاته. إنَّ تكرار الصيغة *"وما ظنكم..."* يشي بأنَّ الجاحظ لا يقصد

[1] الرسائل الأدبية، ص.٣٥.

طلب الجواب حقيقة، وإنَّما يوظّف الاستفهام الإنكاري التوبيخي؛ ليضع السامع أمام صورة مروّعة لا تحتاج إلى جواب، بل تفرض جوابًا ضمنيًّا واحدًا؛ أنّ هؤلاء في أسوأ حال وأخطر مآل. وبهذا، فإنَّ الاستفهام عند الجاحظ يُحقّق وظيفةً تداوليةً تقوم على توجيه الوعي وإلزام المخاطَب بموقف محدّد[١]. فهو استجوابٌ ظاهري، وتوبيخٌ ضمني، وإقناعٌ مقصود، والاستفهام هنا لا يؤدي غرضًا أسلوبيًّا فحسب؛ بل يضطلع بدور الرابط النصي، وفق ما قرره دي بوجراند ودريسلر[٢]؛ إذ يخلق تماسكًا بين أجزاء الخطاب عبر التكرار، ويوحّد السياق الدلالي: فالمستفهم عنه في الموضعين واحد من حيث الجوهر؛ لكنَّه يُعرض في صورتين متكاملتين: صورة العاصي الممقوت عند الله، وصورة المتكلم المرتبك في مذهبه. هذا الترابطُ يُعمّق البنية الجدلية للنَّصِّ ويجعله أكثر تماسكًا.

فالاستفهامُ في النَّصِّ السابق يقلب المشهد ويظهر التناقض. فالمتكلم الذي يدّعي الخوض في قضايا التشبيه والجبر والإرجاء، يُصوَّر عبر الاستفهام عاجزًا عن معرفة قوله أو تقرير مذهبه. وبذلك، يضع الجاحظُ خصومه في موضع المُدان سلفًا، مُستخدمًا الاستفهام ليحاصرهم بخطابٍ لا يُمهلهم فرصة الدفاع[٣].

ويتجلَّى الاستفهامُ هنا في إيقاعٍ متوازٍ يُضفي على النَّصِّ جرسًا خاصًّا، فتكرار "ما ظنكم" مع مقابلة صيغ ثنائية مثل: "يمسى... يصبح"، و"التشبيه ونفيه، الجبر وضده، الإرجاء وخلافه"، هذا التناظرُ يجعل الاستفهام أقرب إلى

---

(١) ينظر: اللغة العربية مبناها ومعناها، ص.٢١٢.

(٢) ينظر: De Beaugrande, R.-A., & Dressler, W. U. p63.

(٣) ينظر: المفاهيم: معالم نحو تأويل واقعي، ص.٧٥.

صيغةٍ شعائريةٍ أو لازمة خطابية تضرب بإيقاعها في ذهن المتلقي، فتضاعف التأثير الجمالي(١).

وفي نصِّه الآخر يقول: "*ولكن استفرغ اللؤم وتعرقه، وبلغ غايته واستوعبه. وكيف؟ ولم يسمع بملحة قط ولا فهمها، ولا ابتسم من نادرة قط ولا عقلها*"، نلحظ أنَّ الاستفهام قد جاء في صورةٍ مُقتضبة، مقتصرة على كلمة واحدة، وهذه الصيغة القصيرة – على إيجازها – تحمل من الدلالات التداولية والبلاغية ما يجعلها ركيزةً أساسيَّةً في بناء النَّصِّ، و"كيف" الاستفهامية لا تكتمل إلا باستدعاء سياقها السابق واللاحق. فالجاحظ يصف الشخص ببلوغ أقصى درجات اللؤم، ثم يأتي بالاستفهام ليعلّق على هذا الوصف. وهنا لا يقصد سؤالًا حقيقيًّا عن الكيفية، وإنَّما يطرح استفهامًا إنكاريًّا يُراد به التعجب من اجتماع صفتي اللؤم والجفاء، مع العجز عن إدراك طرفي الطرافة والظرف. فالنَّصُّ لا يفتح باب الجواب؛ بل يفرض جوابًا ضمنيًّا: أنَّ هذا الشخص في غاية البؤس والافتقار إلى الذوق(٢). وهو هنا يربط بين الجملة السابقة "*استفرغ اللؤم وتعرّقه*" والجمل اللاحقة: "*ولم يسمع بملحة قط ولا فهمها*" فهو حلقةُ وصلٍ تفرض على القارئ الانتقال من الحكم العام على الشخص (اللؤم) إلى بيان مظاهره التفصيلية (انعدام الذوق والفكاهة). فالنَّصُّ هنا تتحقق علاقته بالترابط والاتساق بين الوحدات فيه(٣).

والجاحظ هنا لا يكتفي بإلصاق صفة اللؤم بالشخص؛ بل يعمد إلى تصويره عاجزًا عن التفاعل مع أبسط مظاهر الحياة الاجتماعية: الملحة، النادرة،

---

(١) ينظر: اللغة العربية مبناها ومعناها، ص.٢٣٣.

(٢) ينظر: اللغة العربية مبناها ومعناها، ص.٢١٢.

(٣) ينظر: De Beaugrande, R.-A., & Dressler, W. U. p63.

الابتسامة. وبهذا يصبح الاستفهامُ أداةً للتقريع والسخرية؛ إذ يطرح المتلقي أمام صورة شديدة التناقض: إنسان استوعب اللؤم ولم يتذوق طرفًا من الدعابة. هذا التناقض هو الذي يجعل الاستفهام عنصرًا من عناصر الإقناع والتهكم في آنٍ واحد. فالقارئ هنا ينتقل من تراكم الأفعال (استفرغ، تعرّقه، بلغ، استوعبه) إلى استفهام قصير، كالسهم القاطع. هذا الانتقال المفاجئ يضفي إيقاعًا متوترًا يخدم غرض الهجاء، ويؤكد على عمق المفارقة البلاغية[1]. والجدول التالي به إحصائية للروابط التداولية بالمدونة:

الأداة	الشواهد	مرات الورود (تقريبًا)	الوظيفة البلاغية / التداولية	الوظيفة النحوية
الاستفهام الإنكاري	"وما ظنكم بمن يمسي في غضب الله تعالى... وما ظنكم بمتكلم لا يعرف قوله"	2	-ليس للسؤال الحقيقي بل للإنكار والتوبيخ. - يلزم المخاطب بجواب ضمني واحد: الإدانة.	أداة استفهام في صيغة جملة
الاستفهام القصير	"وكيف؟ ولم يسمع بملحة قط..."	1	-أداة تعجب وسخرية. - توظيف الصيغة القصيرة كرصاصة بلاغية تقطع السياق وتشد الانتباه. - تفرض جوابًا ضمنيًا: بلوغ أقصى البؤس.	أداة استفهام مقتضبة

(١) ينظر: Austin ,p.94; Searle, p.31

رابعًا: الروابط المعجمية: (الربط بالتكرار والترادف والتضاد):

ينتمي التكرار في الدرس اللساني والبلاغي إلى صميم أدوات الاتساق وبناء الانسجام، وليس هو ترديدًا آليًّا لصيغٍ بعينها؛ بل منظومة ربطٍ تؤدي وظائف مرجعية وإيقاعية وحجاجية، تتضافر لتجعل النَّصَ وحدةً متماسكةً في سطحه وعمقه. فهو خيط تصميمٍ يشدُّ الجمل والفقرات إلى موضوعٍ محوري وليس زينةً لفظيَّة.

ونصوصُ الجاحظ – موطن الدراسة – يحضر فيها التكرارُ بمستوياتٍ متعدّدة – لفظًا وتركيبًا ومقامًا– ويتحوّل إلى خدمة حجّة الهجاء بضغطه وإحاطته وتقريعه.

لذا؛ كان في نصوصه الهجائية متفننًا في توظيف آليات الربط النَّصي والتكرار بوصفها أدوات لسانية دقيقة؛ تضمن للنص انسجامه وتماسكه. فهو يبدأ بالضمير المنفصل "هو" في قوله: "*هو منحرف عن الجادة، يخبط خبط العشواء، ويحكم حكم الورهاء، ويناسب أخلاق النساء؛* لأنَّ المرأة لا تسمو إلى مراتب السادة، ولا تروم منافسة القادة، وليس لها من عقلها مادة"[1]، وهذا الضمير ليس مجرد عنصر إحالي تقليدي؛ بل هو علامةُ ربطٍ تفتح مسارًا دلاليًّا يُحيل مباشرةً إلى المذموم في فصول الهجاء. واللافت أنَّ هذا الضمير لا يكتفي بالإحالة؛ وإنَّما يمنح النَّصَ طابعًا تداوليًّا يوحي بأنَّ المخاطَب حاضرٌ

(١) الرسائل الأدبية، ص.٣٤.

في الذهن وإنْ غاب في الحسِّ، وهو ما يُسمَّى بالإحالة الغائبة التي تستدعي المتلقي لملء الفراغ النصي[١].

وفي قوله: "*لم أر* له *محتجًا، ولا* عنه *مكذبًا، ولا رأيت أحدًا يرحمه، أو يحفل* به، *أو يمسك* عنه، *أو يشفع* فيه"[٢] نلحظ صناعة الحصار المرجعي والتكرار الضميري؛ حيث تتوالى ضمائر الغائب (له، عنه، به، فيه) بما يشيّد سياجًا إحاليًّا حول المذموم. هذا التكرار ليس زخرفًا، فهو يثبّت مرجعًا واحدًا في الذهن ويمنع تشتّت الإحالة، ويولّد إيقاعًا يتنامى مع كلّ "ولا"، "أو" في سلسلةٍ تراكميَّة مرجعية يكثّفه التكرار؛ لينظّم العلاقات بين الجمل والألفاظ المفردة. وأمّا من زاوية الانسجام، فالتواتر الضميري يُوحّد محور القول ويجعل الجمل لبناتٍ متعاضدة[٣]. فالاتساق المرجعي يثبّت المقصود دون لبس، والضغط الحجاجي بـ"ولا، وأو" يحكم طوق الإدانة للمهجو، والتكرار يرسّخ الصورة.

ويتكرّر القالبُ السرديُّ "قلتُ... قال... قلت... قال... "*قلت لمعاذ بن سعيد... قال: لا يعود إليه حُرّ... وقلت للفيض بن يزيد: صفه لي... قال: يضر –والله– عنده ما ينفع الكرام... قلت: فكيف عشرته؟ قال: فوق العذاب الأدنى، ودون العذاب الأكبر*" [٤].

---

(١) ينظر: التماسك في اللغة الإنجليزية، ص.٧٣.

(٢) الرسائل الأدبية، ص.٣٣.

(٣) ينظر: لسانيات النص: مدخل نظري وتطبيقي، ص.٨٥؛ تحليل الخطاب: دراسة في النص والنسق، ص.٩٥.

(٤) الرسائل الأدبية، ص.٣٤.

هذا التكرار القالبي يُحدّد دورة التبادل، ويضبط زمن القراءة، ويمنح المشهد الهجائي إيهام المحاورة، فكُلّ "قلت، قال" نقطة ارتكاز تُنظّم تدفّق الشهادات وتُراكمها. وهذا تسلسلٌ خطابي يضمن الاتساق الإجرائي للنص، ويشيّد مسرحًا هجائيًّا يمرّ عبره الشهود واحدًا بعد آخر. فهو تنظيمٌ تداولي يوزّع الأدوار ويُرشد التأويل، وتعضيد للحجّة بتوالي القول؛ ليراكم شهاداتٍ مؤازِرة، وفيه اقتصاد تعبيري؛ إذ يعفي من إعادة السياق كل مرّة.

ويؤسس الجاحظُ مقابلاتٍ تبنيها وحدات متطابقة شكليًّا، "ما، ما" و"فوق، دون" كما في قوله: "*ينفع عنده* **ما** *يضرّ الكرام، ويضرّ عنده ما ينفع الكرام*" [1].

فتكرار الموصول "ما" مع إعادة "الكرام" بـ"أل" العهد يبني لوحةَ طباق "نفع، ضرّ" تتقوّى بالتكرار؛ كل شطرٍ مرآة للآخر. تتجاوب هذه البنية مع ما يعدّه هاليداي وحسن تكرارًا مُعجميًّا بالعدسة نفسها، وتفسيره العربي عند العواضي وعبد المجيد في توليد المعنى بالتوازي الشكل يعمّق الدلالة.

وفي قوله: *"فوق العذاب الأدنى، ودون العذاب الأكبر"* يتكرر قطبا القيم "فوق، دون" مع إحالةٍ قرآنيةٍ معروفة؛ فينتج سلمًا دلاليًّا موجزًا، يضع «العِشرة» في حيّز العقاب على محورٍ مرجعيّ معلوم. فالتضاد يُشدّ بالتماثل اللفظي، والإحالة المعيارية "الكرام" معهودٌ ذهنيًّا، و"الأدنى، الأكبر" معياران قرآنيان، ونلاحظ التوازي يختصر الاستدلال في صورتين متقابلتين.

---

[1] الرسائل الأدبية، ص.٣٤.

ونجد التكرار السلبي: "لا... ولا... ولا..." ففي: "*ولا روى أثرًا، ولا طلب شعرًا، ولا حفظ خبرًا، ولا قرأ تنزيلًا*" تساق سلسلة نفي على نسقٍ واحد، وهذا تكرار بنيةٍ قبل أنْ يكون تكرار مفردات: "لا + فعل ماضٍ" وحدات تتراصّ؛ لتنتج جدارًا دلاليًّا يحجب عن المهجوّ كل رأس مالٍ معرفي "أثر أو شعر أو خبر أو تنزيل". فهنا إحاطة قامعة لفضائل متعدّدة تُسلب بالتتابع، وإيقاع تقريري يسهل استذكارُه ويصعب دحضُه ونفيه، وأيضًا تصعيد هجائي؛ إذ كل "لا" لبنة في بناء التحقير والهجاء.

ونجد – أيضًا – تكرارًا مُعجميًّا يمسك عُرى المفردات المركزية، فـ"اللؤم" مفردة محورية تتكرّر بأشكالٍ ودلالاتٍ متنامية: "*لم أر لؤمًا قط إلا والدهر ينقص منه أو يزيد فيه، إلا لؤمه؛ فقد تناهى*" [1]، فتكرار "اللؤم، لؤمه" يُثبت المحور المعجمي، ويجعل بقية الصفات تفريعاتٍ عنه.

ثم ينتقل الجاحظُ إلى نوعٍ آخر من أدوات الربط، هو التكرار بالمعنى لا باللفظ، ففي قوله: "*يخبط خبط العشواء*"، نجد الفعل المضارع (يخبط) أعقبه بالمصدر (خَبْط)؛ ليؤسس ضربًا من التوازي الدلالي[2]. وهذه البنية القائمة على إعادة الصياغة لا تُعد حشوًا؛ بل هي عند الجاحظ وسيلة لتكثيف المعنى وتأكيده، والأمر نفسه نجده في قوله :"*يحكم حكم الورهاء*" ؛ حيث يعاد الفعل مع مصدره؛ ليصير التكرارُ وسيلةَ ربطٍ داخلي يعضد التماسك.

---

[1] الرسائل الأدبية، ص.٣٨.

[2] ينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ص.٢٠.

وفي قوله: *"لا تسمو إلى مراتب السادة، ولا تروم منافسة القادة"*، يتبدّى لونٌ آخر من الربط، التوازيُ الصرفي؛ إذ جاءت الجملتان على نسقٍ واحدٍ من الفعل المضارع المنفي بـ"لا" متبوعًا بالمفعول به المركب. هذا التوازي ينتج إيقاعًا داخليًّا يجعل النَّصَ أكثر تماسكًا، ويضفي على الهجاء طابعًا موسيقيًّا؛ يعمّق الدلالة، ويؤكد المعنى(١).

ونجد التكرار والتناص سلطةً مرجعية وفاعليةَ خطاب، فإعادةُ النَّصِّ القرآني *"العذاب الأدنى، الأكبر"* تكرار نمطٍ تعبيري معروف ثقافيًّا، وهنا يتجاوز التكرارُ داخل النص إلى تكرارٍ بين نصين؛ حيث يُدرج الجاحظ تركيبًا متداولًا ذا سلطةٍ عليا في نسيجه الهجائي، فيكسب حكمَه مشروعيةً ويُحيل المتلقي إلى مخزونٍ مشترك لعلاماتٍ لغوية مسنودةٍ بثقافةٍ جمعية.

التكرار عند الجاحظ – في النطاق الذي بين أيدينا – ليس مجرّد ترديد؛ بل هندسة ربطٍ لضمائر متلاحقة تُحاصر المرجع، وقوالب قول تُنظّم المشهد، ومقابلات متوازنة تشد التضاد، وسلاسل نفيٍ تُشيّد جدارًا حجاجيًّا، ومحاور معجمية تُمسك بمقود الدلالة. وهنا يخرج التكرار من الزينة إلى الوظيفة؛ وظيفةِ الاتساق والانسجام والإقناع معًا؛ حيث إنَّ القيمة ليست في اللفظ منفردًا؛ بل في نظام عمله داخل النص.

وعندما يورد قول معمر السلمي: *"موكل بلوم المحسنين، والتعجب من المفضلين، يعدّ الاقتصاد جوداً، والجود سرفاً"* (٢)، فإنَّ الجاحظ يستثمر الترابط

(١) ينظر: في بناء النص، ص.٢١٥.

(٢) الرسائل الأدبية، ص.٣٥.

عبر المترادفات، فيضع "المحسنين" إزاء "المفضلين"، و"الاقتصاد" مقابل "الجود"، و"الطامع" إزاء "الراغب"، وهي علاقات تقوم على التشابه والاتساق الدلالي؛ حيث تبنى الروابط بين الجمل على أساس المعنى، لا على أساس اللفظ وحده.

وفي قوله: "*وليه كعدوه، وجاره الأدنى كالأجنبي الأقصى*" [1] يُقدّم نموذجًا غنيًّا للتشابك بين الإحالة، والعطف، والتكرار، والتضاد.

فالجاحظ هنا يعمد إلى بناء تقابلات حادة: "وليه، عدوه"، "الأدنى، الأقصى"، ثم يعضدها بعلاقات شبه ترادفية: "رفيقه، صديقه"، "ذليل، مخذول"، "مقموع، ممنوع، محجوب"، "مكروب، مهزول، مهجور".

ومن خلال هذه النماذج، يتبين أنَّ التكرار عند الجاحظ ليس ظاهرة أسلوبية عرضية؛ وإنَّما هو أداةٌ وظيفيَّةٌ لتحقيق التماسك النصي[2]. وهذا ما يجعل الخطاب الهجائي عنده متماسك البناء، مترابط الحلقات، قادرًا على أنْ يترسّخ في ذهن المتلقي بقوة. فالتكرار أحد أهم أساليب إنتاج الدلالة؛ لكونه يخلق شبكةً من الروابط النصية الفاتحة لمجال لتأويلات متعدّدة[3].

وهكذا نجد أنَّ الجاحظ مارس فنّ الربط النصي بوعي بلاغي ولساني دقيق، يُزاوج فيه بين الإحالة، والتكرار، والترادف، والتضاد، والعطف؛ ليبني

---

(١) الرسائل الأدبية، ص.٣٨.

(٢) ينظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص.١٩.

(٣) ينظر: تحليل الخطاب الشعري، ص.٨٨.

هجاءً متماسكًا متدفقًا، يعكس عمق ملكته الأدبية ووعيه بأسس التراكيب التي تضمن للنَّصِّ أنْ يكون وحدةً لغويَّةً متكاملة.

والجدول التالي به إحصائية تقريبية للروابط المعجمية:

نوع الرابط	الشواهد	عدد الورود (تقريبًا)	الوظيفة البلاغية / التداولية	الوظيفة النحوية/النصية
التكرار الضميري	(له، عنه، به، فيه) / «ولا روى أثرًا، ولا طلب شعرًا، ولا حفظ خبرًا، ولا قرأ تنزيلًا«	10	-صناعة حصار دلالي حول المهجو. - تقوية الضغط الحجاجي. - إيقاع متنامٍ يصعّد السخرية.	إحالة داخلية تضمن وحدة المرجع
التكرار القالبي	»قلت... قال... قلت... قال«...	4–5	-إيهام المحاورة. - تراكم الشهادات لتقوية الحجة. - بناء مسرح هجائي متعدد الأصوات.	ضبط زمن القراءة وتنظيم الحوار
التكرار المعجمي	"اللؤم، لؤمه"	2–3	-جعل "اللؤم" مركز النص، وما عداه تفريعات. - تعزيز الطابع المحوري للهجاء.	تثبيت المحور الدلالي للنص
التكرار التركيبي	"لا... ولا... ولا"/ "لا	7	-بناء جدار حجاجي متدرج بالنفي.	نسق نحوي متوازي

نوع الرابط	الشواهد	عدد الورود (تقريبًا)	الوظيفة البلاغية / التداولية	الوظيفة النحوية/النصية
	تسمو... ولا تروم..."		- موسيقى نصية تزيد قوة الإقناع.	
التكرار بالمعنى (التوازي الفعل + المصدر)	"يخبط خبط العشواء"/ "يحكم حكم الورهاء"	2	-تكثيف المعنى بتكرار الفعل والمصدر. - إيقاع داخلي وتوكيد المعنى.	تكرار معنوي صرفي
الموصولات المتكررة	"ما ينفع الكرام، ما يضر الكرام"	2	-صناعة مقابلة حادة (نفع/ضرر). - مضاعفة السخرية بالطباق.	ربط الجملة بالموصول وصلتها
الأضداد/التضاد	"فوق العذاب الأدنى، دون العذاب الأكبر"/ "وليه كعدوه"/ "الأدنى، الأقصى"	5–6	-إبراز المفارقة القيمية. - تكثيف المفاضلة بين الأطراف. - إيقاع جدلي بين الحقول الدلالية.	مقابلات نصية
الترادف/التشابه	"رفيقه، صديقه"/ "ذليل،	6–7	-توسيع شبكة الإدانة بالمرادفات.- تكثيف الدلالة بتعدد الصور.	علاقات اتساق دلالي

نوع الرابط	الشواهد	عدد الورود (تقريبًا)	الوظيفة البلاغية / التداولية	الوظيفة النحوية/النصية
	مخذول"/ "مقموع، ممنوع"/ "مكروب، مهزول، مهجور"		- إغناء الحقل الدلالي بالمعاضدة.	
التناص	»العذاب الأدنى، العذاب الأكبر» (قرآني)	2	-إدخال النص المقدس في سياق هجائي. - إضفاء سلطة مرجعية على القدح. - تعزيز المشروعية الأخلاقية للهجاء.	إحالة خارجية

خامسًا: الربط بأل العهدية:

الربط بـ"أل" العهدية من أبرز مظاهر التماسك النصي في *رسائل الجاحظ* المختارة؛ حيث وظّفها لتوكيد المعنى، واستحضار صورةٍ محددة في ذهن القارئ، فتغدو أداةً إحاليَّةً تربط بين أجزاء النص وتشدّ بنيته بعضها إلى بعض. ففي قوله: *" سأخبرك عن هذا الرجل، من لؤم الطبع، وسخف الحلم،*

ودناءة النفس، وخبث المنشأ" [1] نجد أنَّ "أل" الداخلة على (الرجل، الطبع، الحلم، النفس، المنشأ) ليستْ مجرد أداة تعريف؛ وإنَّما هي "أل" العهدية التي تُحيل القارئ إلى معهودٍ ذهنيٍّ سابق؛ إذ تحضر صورة المذموم واضحة في السياق. وهنا يتضح أثر "أل" في تماسك النص؛ فهي تُوجّه ذهن القارئ نحو المرجع المعهود، وتربط بين الصفات المتتالية التي وُصِف بها الرجل؛ لتكوّن صورة متكاملة مترابطة.

ويمضي الجاحظُ في استثمار هذا النَّمط من الربط حين يقول: *"قال سهل بن هارون: إن الحاسد والغضبان والحاقد والعيّاب، إذا استنفدوا العيوب، استتلوا قول الزور، والتمسوا ما شاكل الحق"* [2]. وهنا نلحظ أنَّ هذه البنية النَّصيَّة تكشف عن وظيفة مزدوجةٍ: من جهة، هي وظيفة إحالية؛ إذ تشير "أل" إلى معهودٍ ذهنيٍّ في الوعي الجمعي، ومن جهة ثانية، وظيفة تفسيرية؛ لأنَّها تجعل من هذه الصفات أو القيم محددة ومعرَّفة، كأنَّها نماذج بشرية قائمة بذاتها. فـ"أل" دخلتْ على (الحاسد، الغضبان، الحاقد، العياب، العيوب، الزور، الحق)، وكلها ألفاظ ذات حضور ذهني مشترك؛ فهي ليست مفردات مجردة؛ بل رموز اجتماعية سلبية يستحضرها المتلقي من تجربته الثقافية. وهكذا تتحوّل "أل" العهدية إلى وسيلةٍ إحاليَّةٍ داخل النَّصِّ، تُنتج شبكةً دلاليَّةً مترابطة، تُسهم في اتساق الخطاب واتضاح مقاصده. فلا يمكن

---

[1] الرسائل الأدبية، ص.٣٢.

[2] الرسائل الأدبية، ص.٣٥.

أنْ تُفهم "أل" العهدية في بُعدها الصـــرفي فحســـب؛ بل ينبغي النظر إليها باعتبارها وسيلة ربطٍ نصيّ؛ تُكسب الكلام انسجامًا داخليًّا[١].

وفي موضعٍ آخر يقول: "*ووصفه آخر فقال: هو يظلم الضعيف، ويقتل الصـــريع، ويدفّف على الجريح، ويطلب الهارب، ويهرب من الطالب*" [٢] لقد كرّر الجاحظُ – هنا – آلية الربط بـــــ"أل"، فتوزّعت على ســـتة ألفاظ: "الضـعيف، الصـريع، الجريح، الهارب، الطالب". واللافت – هنا – أنَّ هذه الألفاظ تُشـكّل شـبكةً دلاليَّةً متقابلة: فـــــ"الطالب" في مقابل "الهارب"، و"الصريع" مع "الجريح"، وكلُّها تُحيل إلى معهودٍ ذهنيّ مشترك، بحيث لا يحتاج القارئ إلى تحديد إضـافي، فتجعل النَّصَّ شـبكةً لا تنفصـم عراها؛ لأنَّ كل عنصـر فيها يسـتدعي عنصـرًا آخر، جميعها تُمثّل صـورًا للخصـومة والصـراع الاجتماعي في لوحةٍ لغويَّةٍ مشحونةٍ بالتنافر والمعاناة. وبهذا تتولَّد وحدة دلالية متماسكة؛ تجعل النَّصَّ أقرب إلى التصوير البلاغي المتكامل[٣].

وقد اتفق اللسانيون المحدثون على أنَّ "أل" العهدية تُؤدّي وظيفةً إحاليَّةً مركزية، فهي تربط بين النَّصِّ والقارئ عبر ثلاثة أنماط: العهد الحضـــوري، والعهد الذهني، والعهد الذكري[٤]، والجاحظُ يسـتثمر هذه الإمكانات بدقة؛ ففي النصـوص السـابقة يتبدّى العهدُ الذهنيُّ على وجه الخصـوص؛ إذ يُعنى الكاتبُ باستدعاءِ صُورٍ ذهنيَّةٍ مشتركةٍ بينه وبين المتلقي، فيجعل "الرجل" أو

---

[١] ينظر: اللسانيات وأسسها المعرفية، ص.١٤٤.

[٢] الرسائل الأدبية، ص.٣٨.

[٣] ينظر: المفاهيم: معالم نحو تأويل واقعي، ص.٩٢.

[٤] ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص.١٧٧.

"الضـــعيف" أو "الحاســـد" معهودًا في الوعي الجمعي، لا يحتاج إلى تعريف جديد.

كما أنَّ هذا النَّمط من الرَّبط لا يقف عند حدود الإحالة الذهنية فحسب؛ بل يتجاوزُها إلى خَلْق إيقاعٍ تكراريٍّ في النَّصِّ. فدخول "أل" على سلسلةٍ من الألفاظ المترادفة أو المتجاورة دلاليًّا؛ يمنح النَّصَّ ضربًا من التوازي التركيبي، يزيده إحكامًا وسبكًا. ففي قوله: *"رفيقه جائع، وصديقه ضائع، وجاره ذليل، وناصره مخذول"* (١)، نجد أنَّ تكرار "أل" العهدية على (الصديق، الجار، الناصر) يُسهم في تثبيت المعاني وربطها، ويجعلها أشبه ببنيةٍ متوازيةٍ تُذكّر بإيقاعِ السجع أو التناظر البلاغي.

إنَّ "أل" العهدية في نصوص الجاحظ ليست مجرد علامةٍ نحويَّةٍ؛ بل هي آلية نصية فاعلة، تُوظَّف لبناء التماسك بين المفردات والجمل، وتوليد شبكة من العلاقات الدلالية(٢). ولعلَّ هذا ما يجعل نصوص الجاحظ ميدانًا خصبًا للدراسة النَّصية الحديثة؛ إذ يجتمع فيها البُعد البلاغي القديم مع التحليل اللساني المعاصر. فالجاحظ حين يُكرِّر "أل" على نحوٍ متتابع؛ إنَّما يُحقق تماسكًا دلاليًّا وإيقاعيًّا معًا، ويجعل من النَّصِّ بناءً مترابط الأجزاء، متكامل العناصر.

---

(١) الرسائل الأدبية، ص.٣٩.

(٢) ينظر: حول الاتساق في نصوص المرحلة الثانوية (مقاربة لسانية)، ص.٤٣١.

المبحث الثالث: البنية الجمالية والبلاغية للروابط في خطابه الهجائي

المطلب الأول: البنية الإيقاعية والتركيبية

البنية الإيقاعية والتركيبية للنَّصِّ تمثّل أحد أهم الأبعاد الجمالية والبلاغية في الخطاب الهجائي عند الجاحظ؛ إذ تتكامل فيه العناصر النَّحوية والبلاغية؛ لتشييد نسيجٍ نصيٍّ مشدود الأطراف، متماسك الوحدات. وقد وعى الجاحظُ، من خلال نصوصه الهجائية خاصة، أنَّ قوة النَّصِّ لا تكمن في الأفكار وحدها؛ بل في الطريقة التي تُصاغ بها تلك الأفكار إيقاعًا وتركيبًا؛ حيث تُستثمر أدوات الربط: (العطف، التوازي، السجع، التكرار، "أل" العهدية، الضمائر...)؛ لتوليد إيقاعٍ هجائيٍّ ساخر، وفي الوقت نفسه لبناء نصٍّ مترابطٍ، يحقق شرط "التماسك النصي" بالمعنى الذي يؤكده اللسانيون المعاصرون[١]. ويتمثّل في:

١- السجع والتوازي: فالسجع من أبرز سمات نصوص الجاحظ الإيقاعية؛ إذ يأتي في صورةِ فقرات قصيرة متوازية، تتصل عبر روابط نحوية ودلالية؛ لتُحدث تنغيمًا داخليًّا. ففي قوله: "وجاره ذليل، وناصره مخذول، وجليسه مقموع، وغريمه ممنوع، وصفيه محجوب، وخادمه مكروب، وكلبه مهزول، وبابه مهجور"[٢] نجد أنَّ الجمل كلَّها جاءتْ في نسقٍ واحد: مبتدأ + خبر، حيث المبتدأ مضاف إلى ضمير الغائب (جاره، ناصره، جليسه...)، والخبر على وزن "فعيل" أو "مفعول". وقد رُبطت هذه الجمل جميعًا بالواو؛ مما ولّد إيقاعًا متدفقًا

---

[١] ينظر: التماسك في اللغة الإنجليزية، ص.٢٨٦؛ المفاهيم: معالم نحو تأويل واقعي، ص.٩١.

[٢] الرسائل الأدبية، ص.٣٩.

يقرع الأذن ويشد الانتباه. هذا التوازي التركيبي يعكس ما يُسمَّى ببلاغة التراكيب؛ حيث تنتظم الوحدات في نسقٍ واحدٍ يُولِّد إيقاعًا دلاليًّا جماليًّا معًا[١]. واللافت أنَّ الروابط هنا ليستْ مجرد وسائل نحوية؛ بل أدوات إيقاعيَّة تُسهم في خَلْق السجع الداخلي، فالتكرار في الصيغ – مثلًا – (ذليل/مخذول/مقموع/ممنوع...) يُحدث تناسقًا صوتيًّا ومعنويًّا، يُضاعف من أثر الهجاء في النفوس.

٢– الروابط أدوات تنغيم بلاغي: فإذا نظرنا في قول الجاحظ: "يظلم الضعيف، ويقتل الصريع، ويطلب الهارب، ويهرب من الطالب[٢]؛ لوجدنا الجمل جاءتْ كلها في إيقاعٍ واحد: فعل مضارع + مفعول به معرف بـ"أل". هذا النَّمط المتكرر يجعل النَّصَّ يكتسب نوعًا من التنغيم البلاغي؛ حيثُ الروابط تمنح الجُمل نسقًا واحدًا، وتحوّلها إلى ما يشبه السلسلة الإيقاعية. وقد لاحظ اللسانيون أنَّ التكرارَ التركيبيَّ يعدّ من أقوى عوامل التماسك النصي[٣].

إنَّ القيمة الجماليَّةَ هنا ليستْ في المفردات المفردة؛ بل في انتظامها عبر الروابط، فيصير النَّصُّ كيانًا واحدًا نابضًا بالإيقاع. وهذا ما وعاه الجاحظُ عمليًّا قبل أنْ يتحدَّث عنه علماءُ اللسانيات الحديثة؛ إذ كان يدرك أنَّ قوة الخطاب في انتظام وحداته وتناغمها.

---

(١) ينظر: في بناء النص، ص.٢١٧.

(٢) الرسائل الأدبية، ص.٣٨.

(٣) ينظر: التماسك في اللغة الإنجليزية، ص.٥٢.

٣- التوازي التركيبي: من أبرز ما يلفت النَّظر في نصوص الجاحظِ حرصُه على التوازي التركيبي المتحقّق عبر الروابط. ففي قوله: "لا تسمو إلى مراتب السادة، ولا تروم منافسة القادة"[١]، نجد أنَّ التوازي جاء على صورة جملتين مبدوءتين بـ"لا" الناهية، يليها فعلٌ مضارع، ثم مفعول به مركب.

وهذا النَّمط الموازي لم يكن ليكتسب فاعليته لولا تكرار "لا" التي ربطتْ بين الجملتين، فخلقتْ إيقاعًا متوازنًا. فالتوازي أبرز آليات إنتاج المعنى والإيقاع معًا؛ لأنَّه يُعيد بناء العلاقات بين الجمل بطريقة تُبرز التشاكل البنيوي والدلالي[٢].

٤- التكرار بوصفه إيقاعًا داخليًّا: التكرار عند الجاحظ بنيةٌ إيقاعيَّةٌ، نلاحظ ذلك في قوله: "يخبط خبط العشواء، ويحكم حكم الورهاء"[٣]؛ حيث يتكرر الفعل مع مصدره، فيتحقق التوازي الإيقاعي، وتتعزز الدلالة بالترادف الصوتي. هذا اللون من التكرار الذي يجمع بين المعنى والإيقاع يبيْن عن كيفية عمل أدوات الربط المزدوج بين الأداء النحوي والأداء الموسيقي الخالق لإيقاعٍ هجائيٍّ ساخر؛ إذ يعيد تركيز الدلالة في ذهن القارئ، ويضمن استمرار المعنى من جملةٍ إلى أخرى[٤].

٥- الروابط والإيقاع التداولي حاضرة في النصوص الهجائية المختارة، فإن الروابط النصية فيها تكتسب وظيفة إيقاعية لكونها تهيئ المتلقي لتوقع

---

[١] الرسائل الأدبية، ص.٣٤.

[٢] ينظر: المفاهيم: معالم نحو تأويل واقعي، ص.١٠٢.

[٣] الرسائل الأدبية، ص.٣٣.

[٤] ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص.١٨٢.

الاستمرار، فحين تُكرّر الواو بين الصفات، أو "لا" في النفي، أو "أل" العهدية في الأسماء، فإنَّ القارئ يتوقع مجيء المزيد، فيظل مشدودًا إلى النَّصِّ. هذا الإيقاع التداولي يجعل الخطاب الهجائي عند الجاحظ أقرب إلى المشهد المسرحي الذي تتوالى فيه الأدوار والصفات، وذلك مصداق ما أشار دي بوجراند ودريسلر مِنْ أنَّ التماسك النصي ليس مجرد ربط لغوي؛ بل هو أيضًا "إدارة لتوقعات المتلقي"[1].

المطلب الثاني: الحجاج والتصعيد

إذا كان البُعد الإيقاعيُّ والتركيبيُّ يمثّل الهيكل الظاهري لنصوص الجاحظ، فإنَّ البُعد الحجاجي والتصعيدي يُمثّل العمق الفكري والجدلي الذي يُبنى عليه الخطاب. فالهجاء عند الجاحظ ليس شتيمةً عابرةً أو ذمًّا مجانيًّا؛ بل بناء متدرّج يقوم على شبكةٍ من الروابط النَّصية التي تُحكم تتابع الأفكار، وتحقق تصعيدًا متناميًا في حدة الإهانة؛ حتى يبلغ النص ذروته. وهنا تتجلّى عبقرية الجاحظ؛ حيث الحجاج القائم على السخرية وتوظيف الروابط لإدارة النص وإقناع المتلقي.

ونلحظ ذلك من خلال تسلسل الإهانة من خلال أدوات الربط، فخطاب الجاحظ الهجائي أنَّه لا يُلقي التهمة دفعة واحدة؛ بل يبنيها خطوة خطوة عبر أدوات الربط، بحيث تتحوّل كلُّ جملةٍ إلى لبنة في عمارة الحجاج، ففي قوله: "هو يظلم الضعيف، ويقتل الصريع، ويذفف على الجريح، ويطلب الهارب،

---

[1] De Beaugrande & Dressler, p.63.

ويهرب من الطالب"[١] نلحظ أنَّ الواو هنا ليستْ مجرد أداة عطف؛ بل هي أداة ترتيب حجاجي؛ إذ تنقل القارئ من جريمة إلى أخرى، في تسلسلٍ يضاعف مِنْ وَقْع الإهانة. فيبدأ بوصفه ظالمًا للضعيف، ثم قاتلًا للصريع، ثم مُجْهزاً على الجريح، ثم طالبًا للهارب، ثم جبانًا يهرب من الطالب، هذا التدرّج ليس عشوائيًّا؛ إنَّه تصعيدٌ حجاجيٌّ متقن، يُظهر الرجل وقد اجتمعتْ فيه كُلُّ النَّقائص. وما سلكه الجاحظُ أطلق عليه بعضُ الباحثين[٢] "التتابع التصاعدي"؛ حيث كل وِحدة نصية تهيئ لما بعدها حتى يُحكم البناء.

ونلحظ أيضًا بناءَ المفارقة الساخرة تدريجيًّا، فمن أبرز أدوات البلاغة عند الجاحظ المفارقة الساخرة، وهي لا تأتي فجأةً؛ بل تُبنى عبر روابط تربط المعاني بعضها ببعض في نسق متدرج، ففي قوله: "وليُّه كعدوه، وجاره الأدنى كالأجنبي الأقصى"[٣]، فالكاف هنا أداةُ ربطٍ تشبيهيَّة تُنتج المفارقة؛ إذ تجعل القريب كالعدو، والجوار القريب كالاغتراب البعيد. هذا التضاد يُنشئ مفارقةً ساخرةً، تكشف عن انقلاب القيم. والخطاب البلاغي العربي يحقّق أثره بالإيقاع والمفارقة، والروابط اللفظية هي مفاتيح لتوليد هذا الأثر الجسيم[٤].

إنَّ من سمات التصعيد الحجاجيّ- أيضًا - في النُّصوص الهجائيَّة عند الجاحظ تكديس وتكثيف الأوصاف عبر الروابط؛ حتى يتضخم المعنى. ففي

---

[١] الرسائل الأدبية، ص.٣٨.

[٢] De Beaugrande & Dressler, p.119.

[٣] الرسائل الأدبية، ص.٣٤.

[٤] ينظر: في بناء النص، ص.٢٤١.

قوله: "جاره ذليل، وناصره مخذول، وجليسه مقموع، وغريمه ممنوع، وصفيه محجوب، وخادمه مكروب، وكلبه مهزول، وبابه مهجور"[١]، فنلاحظ تتراكم الجمل بفعل العطف، وتتصاعد السخرية حتى تصل إلى ذروةٍ بالغة. إنَّ هذا التكثيف لشكلٍ من أشكال التضخيم البلاغي الذي يعتمد على الروابط المتوالية المولّدة سياقًا تكراريًّا يجعل المعنى يتراكم بكثرة[٢].

من الملاحظ – أيضًا – أنَّ أدوات الربط في النَّصِّ الهجائيِّ عند الجاحظ لا تعمل داخل الجملة فقط؛ بل تتجاوزها إلى البنية التداولية الكاملة للنَّصِّ. ففي قوله: *"إنَّ الحاسد والغضبان والحاقد والعياب، إذا استنفدوا العيوب، استتلوا قول الزور، والتمسوا ما شاكل الحق"*[٣]. فتعمل "إنَّ" على تأطير النَّصِّ الحجاجيِّ كلِّه، فتربط بين مقدمات ونتائج. ثم تأتي "إذا" لتجعل من استنفاد العيوب شرطًا يُؤدّي إلى نتيجة استلال قول الزور، فيتحوّل النَّصُّ إلى بناءٍ حجاجيٍّ متكامل، تربطه الأدوات الشرطية والسببية فيتحقّق التماسك على مستوى الخطاب لا على مستوى الجملة فحسب[٤].

---

[١] الرسائل الأدبية، ص.٣٩.

[٢] ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص.١٩٤.

[٣] الرسائل الأدبية، ص.٣٦.

[٤] ينظر: التماسك في اللغة الإنجليزية، ص.٢٣٦.

الخاتمة:

في ختام هذا البحث أسأل الله عز وجل التوفيق والسداد، وأفيد بأني قد وقفت على مجموعة من النتائج، منها:

١- الروابط اللغوية في نصوص المدونة ليستْ أدوات وظيفية محايدة؛ بل بنية مولِّدة للمعنى، تؤسِّس لنسقٍ حجاجيٍّ وجمالي متكامل. فقد جعل الجاحظُ الضميرَ إحالةً ضاغطةً تثبت المرجع في الذهن، والعطفَ آلية تراكمية تضاعِف وقع السخرية، والشرطَ شبكة سببية تُنظّم العلاقات المنطقية، كما استثمرَ التَّكرارَ لترسيخ الصورة، والترادفَ والتضادَ لإبراز المقابلات، و"أل" العهدية لاستدعاء المعهود الذهني المشترك، فغدا نصُّه متماسكًا، مُتدفِّق الإيقاع، نافذ الدلالة. إنَّ هذا الوعي النَّصي يكشفُ أنَّ الجاحظ لم يكتب هجاءً فحسب؛ بل أنشأ خطابًا نصيًّا واعيًا بتماسكه، سابقًا بحدسه لطرائق لسانيات النص الحديثة.

٢- لقد تطوّر مفهوم النص من كونه كلامًا تامًّا مُكتفيًا بذاته في التراث العربي، إلى وحدةٍ دلاليةٍ كبرى في اللسانيات الحديثة؛ تقوم على التماسك والاتساق، ويتكامل فيه الربطُ النَّحويُّ، والدلاليُّ، والإحاليُّ، متمايزًا عن الخطاب، مع امتداداتٍ في البلاغة العربية؛ خاصةً عند عبد القاهر.

٣- اختيار *باب الهجاء* مدوَّنةً للتحليل ينبع من كثافة ظواهر الربط والإحالة فيه؛ حيث شملتْ على المدوّنة كانت غنيةً بكل الروابط اللغوية من ضميرٍ، وعطفٍ، وشرطٍ، وترادفٍ، وتضادٍ، ودلالة، ومن طابعه الحواري الجدلي وثرائه الثقافي. والدراسةُ تُحدِّد نصًّا مُحدّدًا، وزمنًا دقيقًا، وتعتمد منهجًا مُركبًّا يزاوج بين لسانياتِ النَّصِّ والتحليل التداولي؛ للكشف عن تماسك الخطاب وفاعليته الحجاجية.

٤- أظهرت الدراسة أنَّ خطاب الجاحظ في النَّص الهجائي يكشف عن ذوقٍ بلاغيٍّ عميق؛ إذ وظَّف الروابط وسائل لبناء إيقاعٍ هجائيٍّ ساخر، وتدرّج حجاجي متصاعد، ومفارقات ساخرة محكمة، فأقام نصوصًا متماسكةً نابضةً بالحيوية.

٥- أثبتت الدراسة أنَّ ضمير الغائب حضر في المدونة بنسبة تفوق ٥٥٪، بينما جاء الـمُخَاطب بنسبة تقترب من ٤٠٪، أما المتكلم فقد كان حضوره ضئيلًا، وهو ما يتناسب مع فنّ الهجاء الذي ينتشر في غياب المهجو عادةً.

٦- أظهرت الدراسة - أيضًا- أنَّ "الواو" أكثرُ حروف العطف دورانًا في المدوّنة بنسبةٍ تصل إلى ٦٠٪، وهي تؤيد ما تبنّاه اللغويون من أنَّ الواوَ هي أم باب العطف.

٧- الإحالات الخارجية في المدونة كانتْ للقرآن والحديث بنسبة ٣٠٪، بينما الإحالة الداخلية بواسطة الضمائر كانت بنسبة ٣٠٪.

٨- أداتا الشرط "إنْ" و"إذا" طغى حضورهما في المدونة من بين أدوات الشرط الأخر بنسبةٍ تصل إلى ٣٠٪ بالتساوي.

٩- جاءت الروابط المعجمية كثيفةً في المدونة، بنسبٍ مُتقاربة بين التضاد، والترداف، والتكرار تصل إلى ٢٠٪.

وختامًا، أوصي زملائي الباحثين بإعادة قراءة التراث العربي بمنهجٍ لسانيّ حديث، وتوسيع الدراسة لتشمل أبوابًا أخرى من رسائل كتب الجاحظ.

المصادر والمراجع:

- أثر النحو في تماسك النص، عابد بوهادي، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد٤٠، العدد١، ٢٠١٣.

- أصول تحليل الخطاب، محمد الشاوش، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط١، ١٤٢١-٢٠٠١.

- *الانسجام النصي: دراسة في ضوء علم النص*، أحمد فتحي، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 2003.

- تحليل الخطاب الشعري، ثنائية الاتساق والانسجام، فتحي رزق الله الخوالدة، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٦.

- *تحليل الخطاب: دراسة في النص والنسق*، ح عبد المجيد، بيروت، دار الفكر العربي، 2007.

- تحليل الخطاب، جون براون بول، ترجمة محمد لطفي، الزليطي، منير التركي، جامعة الملك سعود، الرياض١٩٩٧.

- التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، أبو حيان الأندلسيّ، تحقيق حسن هنداوي، دمشق، دار القلم، ط١، ١٩٩٧.

- *الترابط النصي في البلاغة العربية*، محمد عبد السلام، القاهرة، دار غريب، 2012.

- الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب، خالد بن ياسر البطاشي، دار حرير للنشر، ط١، ٢٠٠٩.

- *التماسك في اللغة الإنجليزية*، هاليداي، م. أ. ك، وحسن، رقية، ترجمة: محمد عناني. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985.

- جامع الدروس العربية، مصطفى بن محمد سليم الغلاييني، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة٢٨، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

- حول الاتساق في نصوص المرحلة الثانوية (مقاربة لسانية)، مفتاح بن عروس، مجلة اللغة والأدب، العدد ١٢، الجزائر، جامعة الجامعة، ١٩٩٧م.

- دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

- *الربط النصي في العربية*، عبد الله الحمد، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 2004.

- الرسائل الأدبية، الجاحظ، تحقيق محمد طه الحاجري، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٣م.

- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، علي بن محمد الأشموني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨.

- شرح الرضي على الكافية، محمد بن الحسن الرضي، تحقيق يوسف حسن عمر، ليبيا، منشورات جامعة بني غازي، ط٢، ١٤١٦.

- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، صبحي إبراهيم الفقي، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط١.

- علم لغة النص، سعيد حسن بحيري، الشركة المصرية لونجمان، الجيزة، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٧.

- في اللسانيات ونحو النص، إبراهيم خليل، دار المسيرة، عمان، الأردن، ط١، ١٤٢٦هـ.

- *في بناء النص*، محمد حماسة عبد اللطيف، القاهرة: دار الشروق، 2005.

- *قضايا النحو في التراث العربي*، عبد السلام الهاشمي، بيروت: دار الفكر، 2001.

- *لسانيات النص: مدخل نظري وتطبيقي، العواضي*، عمّان: دار المسيرة، 2014.

- لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦م.

- *اللسانيات وأسسها المعرفية*، عبد السلام المسدي، بيروت، دار الجيل، ١٩٨٣.

- *اللغة العربية معناها ومبناها*، تمام حسان، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000م.

- محاضرات في لسانيات النص، جميل حمداوي، دار الألوكة، ط١، ٢٠١٥.

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، عبد الله بن يوسف ابن هشام، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دمشق، دار الفكر، ط٦، ١٩٨٥.

- المفاهيم: معالم نحو تأويل واقعي، محمد مفتاح، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٩م.

- مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، مكتبة الأنجلو، دون تاريخ وبدون طبعة.

- *المناهج النحوية: دراسة في أصول التفكير النحوي*، سعيد محمد حسين، عمّان، دار المسيرة،2015.

- نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، أحمد عفيفي، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ط١، ٢٠٠١.

- النحو والدلالة، مدخل إلى دراسة المعنى النحوي الدلالي، محمد حماسة عبد اللطيف، ط١، ١٩٨٣م.

- نسيج النص، الأزهر الزناد، بحث فيما يكون به الملفوظ نصاً، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٣م.

- النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة تمام حسان، القاهرة: عالم الكتب، ط١، ١٤١٨-١٩٩٨.

- نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، مصطفى حميدة، القاهرة: طبع في دار نوبار للطباعة، ط١، ١٩٩٧م.

Austin, J. L. (1962). *How to do things with words*. Oxford: Clarendon Press.

- Bakhtin, M. M.. *The Dialogic Imagination: Four Essays*. University of Texas Press، 1981.

- Robert-Alain *Introduction to Text Linguistics*، Longman de Beaugrande & Wolfgang U. Dressler، 1981.

- Searle, J. R. (1969). *Speech acts: An essay in the philosophy of language*. Cambridge: Cambridge University Press.

References

- Athar al-naḥw fī tamāsuk al-naṣṣ, ‘Ābid Būhādī, Majallat Dirāsāt, al-‘Ulūm al-Insānīyah wa-al-Ijtimā‘īyah, almjld40, al‘dd1, 2013.

- uṣūl taḥlīl al-khiṭāb, Muḥammad al-Shāwish, al-Mu’assasah al-‘Arabīyah lil-Tawzī‘, Tunisia, V1, 1421-2001.

- al-insijām al-naṣṣī : dirāsah fī ḍaw’ ‘ilm al-naṣṣ, Aḥmad Fatḥī, Cairo : Maktabat al-Anjlū al-Miṣrīyah, 2003

- taḥlīl al-khiṭāb al-shi‘rī, thunā’īyat al-ittisāq wa-al-insijām, Fatḥī Rizq Allāh al-Khawālidah, Azminah lil-Nashr wa-al-Tawzī‘, Amman, Jordan, V1, 2006.

- taḥlīl al-khiṭāb : dirāsah fī al-naṣṣ wa-al-nasaq, Ḥ ‘Abd al-Majīd, Beirut : Dār al-Fikr al-‘Arabī, 2007.

- taḥlīl al-khiṭāb, Jūn Brāwn Būl, tarjamat Muḥammad Luṭfī, alzlyṭy, Munīr al-Turkī, King Saud University, Riyadh 1997.

- al-Tadhyīl wa-al-takmīl fī sharḥ Kitāb al-Tas′hīl, Abū Ḥayyān al’ndlsī, taḥqīq Ḥasan Hindāwī, Damascus, Dār al-Qalam, Ṭ1, 1997.

- al-Tarābuṭ al-naṣṣī fī al-balāghah al-‘Arabīyah, Muḥammad ‘Abd al-Salām, Cairo : Dār Gharīb, 2012.

- al-Tarābuṭ al-naṣṣī fī ḍaw’ al-Taḥlīl al-lisānī lil-khiṭāb, Khālid ibn Yāsir al-Biṭāshī, Dār Ḥarīr lil-Nashr, V1, 2009.

- al-tamāsuk fī al-lughah al-Injilīzīyah, hālydāy, M. U. K, wa-Ḥasan, Ruqayyah, tarjamat : Muḥammad ‘Inānī. Cairo, al-Hay’ah al-Miṣrīyah al-‘Āmmah lil-Kitāb, 1985.

- Jāmi‘ al-durūs al-‘Arabīyah, Muṣṭafá ibn Muḥammad Salīm Ghalāyīnī, al-Maktabah al-‘Aṣrīyah, Ṣaydā, Beirut, Edition 28, 1414h-1993m.

- ḥawla al-ittisāq fī nuṣūṣ al-marḥalah al-thānawīyah (muqārabah lisānīyah), Miftāḥ ibn ʻArūs, Majallat al-lughah wa-al-adab, V12, al-Jazāʼir, Jāmiʻat al-Jāmiʻah, 1997m.

- Dalāʼil al-iʻjāz fī ʻilm al-maʻānī, ʻAbd al-Qāhir al-Jurjānī, taḥqīq Maḥmūd Shākir, Maṭbaʻat al-madanī Cairo, V3, 1413h-1992m.

- al-rabṭ al-naṣṣī fī al-ʻArabīyah, ʻAbd Allāh al-Ḥamad, Riyadh : Maktabat al-Malik Fahd al-Waṭanīyah, 2004.

- al-rasāʼil al-adabīyah, al-Jāḥiẓ, taḥqīq Muḥammad Ṭāhā al-Ḥājirī, Beirut, Dār al-Nahḍah al-ʻArabīyah, 1983m.

- sharḥ al-Ushmūnī ʻalá Alfīyat Ibn Mālik, ʻAlī ibn Muḥammad al-Ushmūnī, Beirut, Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah, V1, 1998.

- sharḥ al-Raḍī ʻalá al-Kāfiyah, Muḥammad ibn al-Ḥasan al-Raḍī, taḥqīq Yūsuf Ḥasan ʻUmar, Libya, Manshūrāt Jāmiʻat Banī Ghāzī, ṭ2, 1416.

- ʻilm al-lughah al-naṣṣī bayna al-naẓarīyah wa-al-taṭbīq, Ṣubḥī Ibrāhīm al-Fiqī, Cairo : Dār Qibāʼ lil-Ṭibāʻah wa-al-Nashr wa-al-Tawzīʻ, V1.

- ʻilm Lughat al-naṣṣ, Saʻīd Ḥasan Buḥayrī, al-Sharikah al-Miṣrīyah lwnḥmān, al-Jīzah, Maktabat Lubnān, Beirut, V1, 1997.

- fī al-lisānīyāt wa-naḥwa al-naṣṣ, Ibrāhīm Khalīl, Dār al-Masīrah, Amman, Jordan, Ṭ1, 1426h.

- fī bināʼ al-naṣṣ, Muḥammad Ḥamāsah ʻAbd al-Laṭīf, Cairo : Dār al-Shurūq, 2005.

- Qaḍāyā al-naḥw fī al-Turāth al-ʻArabī, ʻAbd al-Salām al-Hāshimī, Beirut : Dār al-Fikr, 2001.

- Lisānīyāt al-naṣṣ : madkhal naẓarī wa-taṭbīqī, al-ʻAwwāḍī, Amman : Dār al-Masīrah, 2014.

- Lisānīyāt al-naṣṣ, madkhal ilá insijām al-khiṭāb, Muḥammad Khaṭṭābī, al-Markaz al-Thaqāfī al-‘Arabī, Beirut, V2, 2006m.
- al-lisānīyāt wa-ususuhā al-ma‘rifīyah, ‘Abd al-Salām al-Masaddī, Beirut : Dār al-Jīl, 1983.
- al-lughah al-‘Arabīyah ma‘nāhā wmbnāhā, Tammām Ḥassān, Cairo, al-Hay’ah al-Miṣrīyah al-‘Āmmah lil-Kitāb, 2000M.
- Muḥāḍarāt fī Lisānīyāt al-naṣṣ, Jamīl Ḥamdāwī, Dār al-Alūkah, Ṭ1, 2015.
- Mughnī al-labīb ‘an kutub al-a‘ārīb, ‘Abd Allāh ibn Yūsuf Ibn Hishām, taḥqīq Māzin al-Mubārak wa-Muḥammad ‘Alī Ḥamad Allāh, Damascus, Dār al-Fikr, V6, 1985.
- al-mafāhīm Ma‘ālim Naḥwa Ta’wīl wāqi‘ī, Muḥammad Miftāḥ, al-Dār al-Bayḍā’, al-Markaz al-Thaqāfī al-‘Arabī, V1, 1999M.
- Manāhij al-Baḥth fī al-lughah, Tammām Ḥassān, Maktabat al-Anjlū, Dawwin Tārīkh wa-bi-dūn Ṭab‘ah.
- al-Manāhij al-naḥwīyah : dirāsah fī uṣūl al-tafkīr al-Naḥwī, Sa‘īd Muḥammad Ḥusayn, Amman, Dār al-Masīrah, 2015.
- Naḥwa al-naṣṣ ittijāh jadīd fī al-dars al-Naḥwī, Aḥmad ‘Afīfī, Cairo : Maktabat Zahrā’ al-Sharq, V1, 2001.
- al-naḥw wa-al-dalālah, madkhal ilá dirāsah al-ma‘ná al-Naḥwī al-dalālī, Muḥammad Ḥamāsah ‘Abd al-Laṭīf, V1, 1983m.
- Nasīj al-naṣṣ, al-Azhar al-Zannād, baḥth fīmā yakūn bi-hi al-malfūẓ naṣṣan, Bayrūt : al-Markaz al-Thaqāfī al-‘Arabī, V1, 1993M.
- al-naṣṣ wa-al-khiṭāb wa-al-ijrā’, Robert Dī bwjrānd, tarjamat Tammām Ḥassān, Cairo : ‘Ālam al-Kutub, V1, 1418-1998.

- Niẓām al-irtibāṭ wa-al-rabṭ fī tarkīb al-jumlah al-ʻArabīyah, Muṣṭafá Ḥamīdah, Cairo : Ṭubiʻa fī Dār Nūbār lil-Ṭibāʻah, V1, 1997m.